

مقدمة : النفس المؤمنة

انتقاء و تجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشباب ، ثم تربيتها تربية عميقة شاملة صلبة : ركنان أساسيان في خطة الحركة الإسلامية .

وإنه - كما يقول أبو الحسن الندوي - : " لا بد من إنتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة ويديرون دفتها ، ويربون الرجال ، ويمثلون كل فراغ . وكل حركة أو دعوة أو مؤسسة مهما كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر ، وإنها لا تلبث أن ينقرض رجالها واحداً إثر آخر ، وتفلس في يوم من الأيام في الرجال " ¹.

• على الحركة الإسلامية أن تتفرس في نفسها :

ولكن هذه التربية ليست اكتيال جراف ، فإن أخص خصائصها أنها تلبّي نداء الحاجات المرحلية ، وتعالج الواقع . وفي كل أدب أرشد إليه الإسلام خير ، ولكن طاقة ذي النية الصالحة محدودة ، فواجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخير ، والبدء بما هو أفضل ، وبما يسد حاجة المرحلة من بعد تشخيص النقص .

ذلكم هو الذي يوجب من بعد أن تتفرس الحركة الإسلامية الحاضرة في نفسها فإساسة خبرة ، في خلوة تأمل ، فتحدد نقصها ، وتحصي رصيدها ، ليأذن الله أن تصدق فراستها الأخرى في الناس ، وتحكم طريقها في هذا التصارع العنيف ، كما قال الزاهد الحكيم سمنون - رحمه الله - حين سئل عن الفراسة وحقيقتها ، فأجاب :

(إن من تفرس في نفسه فعرفها : صحت له الفراسة في غيره وأحكمها) ².

وإنه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة ، ويحولنا إياه ، لنتخذة منطلقاً لفراسة نقدية نصف فيها أنفسنا و نحدد نقصنا ، ثم تحويل الفراسة إلى دراسة نسلکها ينابيع في صفوف الدعاة بإذن الله ، فيخرج بها دعاة ، يصدقون بالصدق الذي جاءهم عن ربهم ، و يحفظون أمره .

ولقد شهد التاريخ القريب لأجزاء الحركة بعداً عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية ، وطغياناً في جوانب على جوانب أخرى ، فترى منطقة غلبة الجانب التعبدى وتزكية النفس ، وفي أخرى ترفاً فكرياً ، وفي ثالثة ولعاً بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية ، فاختلفت الصياغات .

ومن حيثيات كثيرة يعرفها أهل المعاناة : بدأ يتضح الخط التربوي المتكامل الموزون ، المستدرک للنقص ، وتحددت ملامحه في غرس معاني :

¹ مذكرات سائح في العالم العربي 79
² تاريخ بغداد للخطيب 9/236 .

- ❖ الحرص على الصلاة و تثبيت العقيدة .
- ❖ والالتزام بأدب الأخوة .
- ❖ و الفرح بالبذل و التعب اليومي .
- ❖ والشوق إلى الجهاد و الاستشهاد ، من دون تهور .
- ❖ والانضباط بالطاعة .
- ❖ و التقلل من الدنيا وطلب الخِفّة .
- ❖ و ترقب الموت ونسيان الأمل الدنيوي .
- ❖ وحب الله تعالى ، في رجاء يضبطه خوف .
- ❖ و مفاصلة الذين كفروا والذين نافقوا .
- ❖ والصبر على المحن .

فمن تحقق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح أن يعتمد ضمن القاعدة الصلبة للحركة الإسلامية .

وهذه الفصول مخصصة لبيان بعض هذه المعاني و التذكير بها ، من خلال مواعظ ترقق القلب ، وتعين النفس على اكتشاف الطريق الصحيح ، وتؤنسها إذ هي ماضية فيه ، فإن مدار حركات هذه الحياة متصل بمحور النفس المترددة بين التقوى و الفجور ، إن صلحت : كان لها ظل وارف يهب الأمن لصاحبها ، و مُتسَعاً للآخرين ، في امتداد بمقدار هذا الصلاح . وإن فسدت : كان ثمّ اضطراب ، و جحيم من القلق .

فمن أجل التنبيه على جمال النفس المؤمنة و الحث على الاقتداء بِسَمَتِهَا : جاء هذا الكتاب .

ويعجبني جداً وصف الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير للنفس البريئة ، ورمز لها رمزاً ، جعلها كأنها فراشة ، واقترب كل الاقتراب من إدراك كمال الحقيقة ، تسوقه فطرته إلا أنه لم يمسكها ، وفاته أنه يصف النفس المؤمنة بأبلغ مما وصفها غيره .. إنها تأسره إذ هي :

ساكنة ، في صَمَتِها ، أَبَيْنُ مَمْنُ يَنْطَقُ

هكذا هي السيماء الإيمانية : وداعة ، و تفكّر ، و تأمل هادئ ، في إقلال من الكلام ، وبعد عن اللغو ، ولكن تحوطها هيبة مؤثرة ، وجمال بليغ مفصح .

و إن وَتَتْ وَفَفَتْهَا : أَعْجَلَهَا المنطقُ

فالوقوفات سُنّة من سنن الحياة ، وقدر مقدور على البشر ، إلا أنها عند المؤمن لن تكون استرخاءً و غفلةً و تمادياً أبداً ، بل هي تعتري برهة ، ثم تُجْلِيها محفّرات كامنة ، من رصيد ذاتي مجموع أو تراث حكمة مركوز .

لكن الشياطين تعترض ، تحاول عرقلة هذا المنطلق ، توهم صاحبه ، وتضع العوائق الثقال في صور من الزينة ، لها بهرج ، و تألق ، و بريق ، تغش النفس الهائمة ، ولكن النفس الملهمة ، التي ألهمت إيمانها ، ترى ما وراء ذلك من حقائق تفصح ما خفي من كبرياء مفتعلة ، أو حسد موسوس ، أو صدارة متأخرة ، أو حب زيادة مال زائل . فذلك هو حوم الفراشة حول ومضات صورتها على سطح البحيرة .

أو هي تجربة النفس المؤمنة ..

لكم رأت خيالها ، ماج به المنبثق

كأنه النجم يرف ، والمياه الأفق

فحوّمت ، ترنوا ، تودّ لو به تعلّق

و أوشكت ، لو لم تُفق ، يقضي عليها الغرق

لكنها مؤمنة ، هيهات ، لا تستحمق

بين الضلال والهدى : يبدو لها المفترق

نعم هكذا : المفترق واضح ، والاقتراب يفصح الصورة ، ويزيد الوضوح وضوحاً ، ويبين أنّ ما ظنته النفس تألقاً من على بُعد إن هو إلا اهتزاز .

ولكن كيف النجاة مع هذا الاقتراب من موجة عالية تفجأ ، فتترك بللاً يُثقل ، إن لم يكن الغرق المتلف ؟

من هنا وجبت الموعظة ، وانبغى التحذير ، في كلام كمثل هذه الرقائق ، كي لا تهبط النفس المؤمنة ، إذ آمنت ، بشيء من رذاذ الاقتراب ، بل حياتها في السمو ، و نجاتها في العلو .

إنها قطعة من البيان نادرة أتى بها الشاعر ، و أهداها الناشئة ، لكنها حكمة المنتهين . وليس ذلك بمستغرب في عرف الحكمة الإسلامية ، فإنها أبدية الصواب ، ليس لها مرحلة متطورة جاءت من بعد سذاجة و تخلف ، لكنها كما تصلح انتهاء : كانت تصلح توسطاً ، وصلحت ابتداء ، مع بدء الحياة البشرية ، وآية ذلك أن التوحيد أُوحي إلى آدم عليه السلام ، بدء الحياة ، وكان نبياً ، و ألهمت التقوى إلى هابيل ، فكفّ يده .

فانظر إشراقه القلب ولطف الإحساس في هذا الرمز المفصح عن طبائع النفس الزكية ، وانظر بمقابلة غلظ حجاب قلب شاعر ملحد يدعو إلى البهيمية ..

إنما العيشُ في بهيمة اللذة ***** لا ما يقوله الفلسفي

حكمُ كأس المنونِ أن يتساوى **** في حساها الغبي و الألمعي

و يصير الغبي تحت ثرى الأرض **** كما صار تحتها اللودعي

فسل الأرضَ عنهما إن أزال **** الشكَّ و الشبهةَ السؤالُ الخفي

وواضح هنا أن هذا الملحد أشار إلى أن المعاني الحقّة هي قول الفلسفي ، لا قول الواعظ المسلم ، ليتجنب في ظنه ما قد يكون من اتهامه بالمروق عن الدين .

قال أبو حيان التوحيدي : سمع أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي هذه الأبيات فقال : " هذا النمط مفسدة للشباب الأغرار ، الذين ليست لهم بصيرة في الأمور ، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة بتلقين قراء السوء ، وقائل هذا قد عاند الدين ، وخلع ربقة الحياء ، و افصح عن الفساد ، وصدّ عن الحكمة ، و قدح بزند الشبهة في النفوس الضعيفة ، والعقول الخفيفة .

يا مسكين : أمِنَ أجل أن الصالح و الطالح و العالم و الجاهل صاروا تحت التراب : يتساوون في العاقبة ؟

أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد ، فلما بلغوا المقصد : نزل كل واحد في مكان معداً له ، وتلقى بغير ما يُلقى به صاحبه ؟

أما دخل قوم داراً فأجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء و هذا بشيء آخر ؟

ثم تقول : سل الأرض عنهما ؟؟

قد سألنا و خبرتنا : أنها ضمت أجسادهم و جثثهم و أبدانهم ، لا كفرهم و إيمانهم ، و لا أنسابهم و أحسابهم ، و لا حكمتهم و سفههم ، و لا طاعتهم و معصيتهم ، و لا أقوالهم و أفعالهم ، و لا يقينهم و شكهم ، و لا زهادتهم و تسبيحهم ، و لا معرفتهم و توحيدهم ، و لا خيرهم و شرهم ، و لا جورهم و عدلهم " .

وفي مثل هاتين القطعتين من الشعر ، وفي التعقيب الذي عليهما ، تتضح بعض جوانب المعركة الدائمة بين الإيمان و صور الضلال .

وفي مثل هذا الكتاب مواعظ ، و إخبارات ، و زيادة يقين

1- تسبيح يَشَدُّ الملك

دعوة تريد أن تستقيم إلى الله .

فعليها أن تدلف من باب الاستقامة إذن . وبابها المحراب .

وهكذا ، فإن على الدعوة الإسلامية في كل وقت أن تبدأ عملها من المسجد ، فتصلح العقيدة ، وتعلم دعائها أدب التعامل الإسلامي ، وبذلك تسقط تلقائياً كل المقاييس الأخرى في التفاضل ، من جودة الكتابة ، و بلاغة اللسان ، و بهرج الشهادات الجامعية .

وإنما جماع الخير في ارتياد المسجد ، وذخيرة المسجد نعم زاد الانطلاق . ولقد أحصاها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال :
" من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثمانى خصال :
آية محكمة

و أخاً مستفاداً

و علماً مستطرفاً

و رحمة منتظرة

وكلمة تدله على هدى ، أو تردعه عن ردى . وترك الذنوب حياء ، أو خشية " ³
" فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع . هو فكر واحد لكل الرؤوس ، ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل . وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانها لا تدخله " ⁴.

" فما المسجد بناء ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله و يضطرب ، فإن الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد ، إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب و روحانية النفس ، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه و أسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء ، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد) ⁵.
ولقد تفاعل الموفقون مع هذه الأعطيات التي تمنحهم إياها مساجدهم ، فولعوا بها ، و شذوا إليها شذاً أنطق الشاعر بالصدق فوصفهم بأنهم :

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا **** (الله أكبر) في شوق وفي جذل

أرواحهم خشعت لله في أدب **** قلوبهم من جلال الله في وجل

نجواهم : ربنا جنناك طائعة **** نفوسنا ، وعصينا خادع الأمل

إذا سجد الليل قاموه و أعينهم **** من خشية الله مثل الجائد الهطل

هم الرجال فلا يلهيهم لعب **** عن الصلاة ، ولا أكذوبة الكسل

ثم ما برح أئمة الموفقين يلحون في التوصية بذلك ، ابتداء بالصدر الأول ، كمثل عبد الله بن المبارك حين يقول :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله **** إذا كنت فارغاً مستريحاً

³ عيون الأخبار لابن قتيبة 3/3 .
⁴ للرافعي في وحي القلم 358-1/357 .
⁵ نفس المصدر السابق

و إذا هممت بالنطق بالباطل **** فاجعل مكانه تسبيحاً⁶

و انتهاء بقادة الدعوة في هذا القرن ، كمثل الإمام البنا حين يوصي أن :
" أيها الأخ العزيز :

أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشي ، ولحظة في السحر ، تستطيع أن
تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملاء ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة . وأمامك يوم
الجمعة وليلتها تستطيع أن تملأ فيها يديك و قلبك وروحك بالفيض الهائل من رحمة
الله على عباده ، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وجهك
إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم ، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من
الغافلين ، ومن العاملين لا من الخاملين ، واغتنم الوقت ، فالوقت كالسيف ، ودع
التسويق فلا أضرم منه " ⁷

وكمثل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك و يقول : " رُكِّبَتَ من القصور
والفقر والعجز و الاحتياج ، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه ،
وبمقياس فقرك إلى درجات غناه و رحمته ، و بميزان عجزك إلى قدرته و كبريائه ،
ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نعمه و إحسانه .
فغاية فطرتك هي العبودية .

و العبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ (أستغفر الله) و (سبحان الله) .
و فقرك بـ (حسبنا الله) و بـ (الحمد لله) ، و بالسؤال . و عجزك بـ (لا حول و لا قوة
إلا بالله) و بـ (الله أكبر) ، و باستمداد .
فَتُظْهِرْ بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته " ⁸

و كمثل الإمام المودودي - رحمه الله - حين يتحدث عن بعث الرسل عليهم السلام
لتحقيق غاية العبودية في الأرض ويقول : " انظروا قليلاً في ما تحرّى النبي صلى
الله عليه وسلم من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية ، فقد قام بدعوة الناس -
أولاً و قبل كل شيء - إلى الإيمان ، و أحكمه في قلوبهم ، وأتقنه على أوسع
القواعد و أرحبها ، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه و تربيته طبقاً لمقتضيات هذا
الإيمان تدرجاً بالطاعة العملية - أي الإسلام - و الطهارة الخلقية - أي التقوى - و
حب الله والولاء له - أي الإحسان . ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين
المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة و استبدال نظام
صالح به ، قام على القواعد الخلقية و المدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل

⁶ طبقات الشافعية للسبكي 1/286

⁷ مجلة الدعوة في دورتها الأولى عدد 8 سنة 1951 م .

⁸ المتنوي العربي لبديع الزمان نورسي 283 .

من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا ولبوا دعوة من كل وجهة - بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم - مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي ، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه إذن ، وبعد كل ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهيبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس ، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة . وكأنني به فتن الذهب و نقاہ من الأوساخ و الأقدار أولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين أولاً ، ثم كساهم زي القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبدو لكل من تأمل القرآن و الحديث و تبصر فيهما ⁹

• أحب نبيك صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته أحدهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة) ¹⁰

وقال : (من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح) ¹¹

وقال : (أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، و الذي ينتظر الصلاة حتى يصلها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام) ¹²

و عن جرير رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة) ¹³

و سأله ابن مسعود : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة على وقتها) ¹⁴

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها و خشوعها و ركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأتي كبيرة ، و كذلك الدهر كله) ¹⁵

وكانت آخر ابتسامة للنبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا : ابتسامته للصلاة ، و ذلك لما كشف ستر الحجرة يوم الإثنين فرأى أبا بكر يؤم الصفوف .

وحت على صلاة الفجر وصلاة العشاء فقال : (من صلى البردين دخل الجنة) ¹⁶

⁹ الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية 72 .

¹⁰ صحيح مسلم 2/131 .

¹¹ صحيح البخاري 1/ 157 .

¹² صحيح البخاري 1/ 159 .

¹³ صحيح البخاري .

¹⁴ صحيح البخاري .

¹⁵ صحيح مسلم 1/142 .

¹⁶ صحيح البخاري 1/137 .

وقال - وقد نظر إلى البدر - :

(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس و قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ : } وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب {¹⁷

و قال : (الذي تغوته صلاة العصر كأنما وُترَ أهله و ماله) أي فقدهما ، وفي لفظ : (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)¹⁸

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب يندرك النبي صلى الله عليه و سلم فيه حبوط العمل وترغيب يشوقك فيه إلى قصور الجنة و رؤية الله فيها ، فأجب ، و إنه لثمن يغري و يطمع و يحرص عليه قبل الكساد ، وكن عند حسن ظن الفضيل ابن عياض فإنه تحدى وقال : (ما حليت الجنة لأمة ثم لا ترى لها عاشقاً) ، عاشقاً يخرج من أجلها في البردين ، وقل له : إني أنا العاشق .

فإن وجدت من نفسك ثقلاً و تكاسلاً فهناك مخاطبة لطيفة يمكن لك أن تخاطب بها نفسك فتقول : هب أنك من العسكريين ، أو من عمال المخابر ، أو الصيادين أو .. ، أما كان يجب عليك التبكير في الاستيقاظ قبل الموظف و الطالب طاعة للنظام العسكري أو تنافساً في طلب الرزق ؟ فالله سبحانه أحق أن يطاع ، وصلاة الفجر أحق أن ينافس فيها . فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها إن شاء الله إن تراخت واستأنست بالنوم .

و إذا ألممت بذنب أو خطأ فاستدرك بالركوع ، فإن داود عليه السلام لما جاءه الخصم يختصمان في النعاج انتبه و استدرك و وصف الله تعالى انتباهه فقال : { وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأتاب * فغفرنا له ذلك }¹⁹
فجعل الاستغفار و الركوع طريقة ، يعلم بذلك الدعاة أن يركعوا .

• حرص الأولين على الصلاة

وكان السلف الصالح يستحبون الأناة في كل شيء ، إلا في الصلاة ، فقد قيل للأحنف بن قيس رضي الله عنه : (إن فيك أناة شديدة) فقال : (قد عرفت من نفسي عجلة في صلاتي إذا حضرت حتى أصلها)²⁰

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له : (الصَّقِّي) ، لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة²¹.

¹⁷ صحيح البخاري 1/137 .

¹⁸ صحيح البخاري 1/137 .

¹⁹ سورة ص آية 24 .

²⁰ طبقات ابن سعد 7/96 .

²¹ تهذيب التهذيب 1/173-447 .

و مثله : إبراهيم بن ميمون المروزي ، أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء بن أبي رباح ، وكانت مهنته الصياغة و طرق الذهب و الفضة . قالوا : (كان فقيهاً فاضلاً ، من الأمّارين بالمعروف . وقال ابن معين : كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردّها)²²

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط وقد أمّ أهل حمص ستين سنة كاملة ، فقال : " ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله " ²³ وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي ، وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب المغني : " لم أصلّ الفريضة قط منفرداً إلا مرتين ، وكأني لم أصلهما قط " ²⁴

مع أنه قارب التسعين .

و الداعية السعيد من يتأمل و يقتدي .

دعوة تتعلم من داود

وكان داود عليه السلام يسبح بالعشيّ و الإشراق ، فسخر الله تعالى الجبال يسبحن معه ، وقال : { إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي و الإشراق } ، فوهبه الله هبة عظمت ذكرها فقال : { وشددنا ملكه } ²⁵

و دعوة تدعي أنها إسلامية لا يشد ملكها اليوم و تغلب مالم يسبح رجالها بالعشي و الإشراق .

وإن التواصي بالصلاة لحسنة نقتربها يزيد الله لنا فيها حسناً ولا بد لنا أن نجعلها كلمة باقية في عقبنا من أجيال الناشئة الجدد ، فإن لم نفعل ، فإن عقد الدعوة سينفطر – لا سمح الله – انفرطاً ما له من فواق .

2- الدقائق الغالية

سجود المحراب ، واستغفار الأسحار ، و دموع المناجاة : سيماء يحتكرها المؤمنون .

ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار ، والنساء ، والقصر المنيف ، فإن :

• جنة المؤمن في محرابه ²⁶

ولقد منّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يفند الرهبانية ، ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه بصفاء روح ، تتضاءل بجانبها لذة المباح ، فيهجر الكثير منه حذراً من كدر يعكر الصفاء الذي هو فيه .

²² تهذيب التهذيب 8 / 424 .

²³ المصدر السابق .

²⁴ ذيل طبقات الحنابلة 2 / 365 .

²⁵ سورة ص آية 20 .

²⁶ شطر لوليد في مجلة التربية الإسلامية 7 / 637 .

جرب ذلك المؤمنون قديماً ، زمن العيش البسيط ، وجربه المؤمنون اليوم ، زمن المدنية المعقدة .

بل إن الصلاة في يوم هذه المدينة لأظهر في إضائها السرور ، فبينما يطيل التعقيد على الإنسان حياته الحاضرة ، فيسأم ، ويمل ، و يضجر ، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب ، فيعيش في اطمئنان ، وراحة بال ، ولئن كان لنظرية آينشتاين في نسبة الوقت نصيب من الصحة ، فإن في الصلاة هذا النصيب ، كما يشرحه مصطفى صادق الرفاعي و يقول :

" يا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروح أبداً إما متصلة أو مهياة لتتصل ، ولن يعجز أضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه أنه متوجه بعدها إلى ربه ، فخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً ، ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس و طهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير ، كأنه بجملته - مهما طال - عمل بضع ساعات " ²⁷

فطول الحياة نسبي .. هو طويل جداً ، مخيف مظلم للجاهلي .. وهو قصير ، هين منير للمصلي .

وحياة الجاهلي ركود مستمر . و حياة المصلي حركة ، تزيد صواباً ، أو تستدرك اعوجاجاً .

و إنها (الله أكبر) تنهي هذا الركود ، و تؤسس الحركة (الله أكبر) .
بين ساعات و ساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف : " أيها المؤمن : إن كنت أصبت في الساعات التي مضت ، فاجتهد للساعات التي تتلو . و إن كنت أخطأت فكفر ، وامح ساعة بساعة " ²⁸

وأظهر حركة يولدها التكبير : حركة التمييز و الفرقان ، بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان .

فإنك إن قلت : { اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين }

استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الأصناف الثلاثة ، و تخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد ، أو بلد واحد ، فتجول في ركعات يومك بلاد الإسلام أجمع ، وتستعرض تاريخ الإسلام أجمع .

²⁷ وحي القلم 1/359 - 364 .
²⁸ وحي القلم 1/359 - 364 .

ففي ركعة تذكر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الأطهار رضي الله عنهم مثلاً لمن أنعم الله عليهم ، و تذكر أبا جهل ومسيلمة مثلاً للمغضوب عليهم والضالين .
وفي ركعة أخرى تذكر هوداً وصالحاً - عليهم السلام - مثلاً ممن أنعم الله عليهم ، وعاداً وثمود من الهالكين .
وفي ركعة أخرى تذكر الحسن البصري وابن سيرين و ابن المسيب ممن أنعم الله عليهم ، و أهل الردة ، و الجهم بن صفوان ، و الجعد بن درهم من المتخبطين .
وفي أخرى تذكر الإمام أحمد بن حنبل ورهطه من المحدثين الموفقين، وبشراً المريسي وابن دؤاد من الظالمين .
وفي أخرى تذكر ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين ، وأصحاب وحدة الوجود والغناء الموهوم و الشطح والابتداع من المدلسين .
وفي أخرى تذكر الإمام البنا وعودة وسيد ، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين .
وبذلك تعقل صلاتك ، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، و تجدد عهدك مع أجيال المؤمنين ، وتنبد المفسدين ، وتلك هي حركة الإيمان ، فإن الإيمان الحق ما أخذ منك الولاء ، وتركك على المفاصلة .

• رجال مدرسة الليل

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون .

فمن ثم كانت مدرسة الليل .

وكان ترغيب الله للمؤمنين أن يجددوا سمت الذين {كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون} وإذا انتصف الليل ، في القرون الأولى ، كانت أصوات المؤذنين ترتفع تنادي :

يا رجال الليل جدوا **** رب صوت لا يرد

ما يقوم الليل إلا **** من له عزم وجدُّ

و إنها حقاً لمدرسة ، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يذكوا شعلة حماسهم ، وينشروا النور في الأرجاء التي لغتها ظلمات الجاهلية .

و إنها تجربة إقبال يوجزها فيقول :

نائح والليل ساج سادل **** يهجع الناس و دمعي هاطل

تصطلي روحي بحزن وألم **** ورد (يا قوم) أنسي في الظلم

أنا كالشمع دموعي غسلي **** في ظلام الليل أذكي شعلي

محفل الناس بنوري يشرق **** أنشر النور و نفسي أحرق²⁹

و إن دعوة الإسلام اليوم لا تعتلي حتى يذكي دعائها شعلهم بليل ، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين مالم تلهج بـ (يا قيوم) .

ما نقول هذا أول مرة ، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعوة فقال :

" دقائق الليل غالية ، فلا ترخصوها بالغفلة " ³⁰

أفعينا أن نعيد السمات الأول ، أم غرنا اجتهد في التساهل و التسيب و الكسل جديد ؟
إن القول لدى الله لا يبدل ، ولكننا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة ، فثقل المغرم ولم يجعل الله لنا من أمرنا يسراً .

إن انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرق المنشور ، بل برجة نصوص إلى العرف الأول ، ومتى ما صفت القلوب بتوبة ، و وعت هذا الكلام أذن واعية : كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة .
ذلك شرط لا بد منه .

و كأن النصر حجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات ، وجهرنا رافعين أصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بادلال ، نبيعه و نثبت لنا حقاً عاجلاً في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همساً في الأسحار ، ولا الدمع المدرار ، وإنما النصر هبة محضة ، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا ، ولا يلت الآخرين المحصرين من ثمنهم في الآخرة شيئاً ، ويوقع أجهرهم عليه .

إن تعلم الإخلاص ، وفضح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل ، كما يقول وليد ، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس . قال ، والحق ما قال :

ياليل قيامك مدرسة **** فيها القرآن يدرسني

معنى الإخلاص فألزمه **** نهجاً بالجنة يجلسني

و يبصرني كيف الدنيا **** بالأمل الكاذب تغمسني

مثل الحرباء تلونها **** بالإثم تحاول تطمسني

فأباعدتها وأعاندها **** و أراقبها تتهجنسني

فأشد القلب بخالقه **** والذكر الدائم يحرسني³¹

وأكثر من هذا فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله ، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم ، شاهده وأرشدك إليه، فقال :

²⁹ ديوان الأسرار و الرموز 79 .

³⁰ مجلة الدعوة في دورتها القديمة عدد 63 .

³¹ أغاني المعركة 38 .

" بحسبك أن قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن قوماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم "

فلم كان ذلك أن لم يكن ليل الأولين يقظة ، وليل غيرهم نوماً ؟ ونهار الأولين جداً ، ونهار الآخرين شهوة ؟

• أتسبقك الحمامة ؟

وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصعلوكي ، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله :

أنام على سهو و تبكي الحمام **** وليس لها جرم ومني الجرائم
كذبت لعمرى الله لو كنت عاقلاً **** لما سبقتني بالبكاء الحمام³²

فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع ، و الشجاعة تسقى بدموع الليل ، وما عرف تاريخ الإسلام
رجاله إلا كذلك ، ولم يقل ابن القيم باطلاً في وصفه لهم بأنهم :

يحيون ليلهم بطاعة ربهم **** بتلاوة ، وتضرع و سؤال

وعيونهم تجري بفيض دموعهم **** مثل انهمال الوايل الهطال

في الليل رهبان ، وعند جهادهم **** لعدوهم من أشجع الأبطال

بوجوههم أثر السجود لربهم **** وبها أشعة نوره المتلالي³³

و سألَ عبد الوهاب عزام الليل عن أروع أسرارهِ ، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين
والمذنبين في تحريم إياه و استمع لتحاورهما :

قلت لليل : كم بصدرك سر **** أنبئي ما أروع الأسرار ؟

قال : ما ضاء في ظلامي سر **** كدموع المنيب في الأسحار³⁴

أفترى المؤمنين إلا مصدق بجواب الليل ، فهو مسارع مستبق ؟

أم ترى أهل البلاغة إلا في إذاعة لما قال ؟ يستملون الناس :

فاز من سبى والناس هجوع

يدفن الرغبة ما بين الضلوع

و يغشيه سكون و خشوع

ذاكراً لله والدمع هموع

سوف يغدو ذلك الدمع شموع

³² طبقات الشافعية للسبكي 3/171 .

³³ اغانة اللهقان 255 .

³⁴ ديوان المثنائي 35

لتضيء الدرب يوم المحشر سجدة لله عند السحر³⁵
و يلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة ، فيستملون المسرف في أخرى أن :
عد إلى الله بقلب خاشع
وادعه ليلاً بطرف داعم
يتولاك بعفو واسع
و يبدل كل تلك الحسنات حسنات أجراها لن ينفدا
كل هذا العفو للعبد المنيب
سابغا من خالق الكون الرحيب
للذي تاب إليه من قريب³⁶

3- الابتداء

كل ممارس للعمل التربوي الإسلامي الحركي يلحظ لا بد ظاهرة سقوط البعض وتراجعهم ، فأنت ترى داعية سالكا مع السالكين ، و تظن أنه سيثبت ، و لكنه يخيب ظنك أثناء الطريق ، بأن تصدمه رهبة أو رغبة ، أو يستأسر لنداء نفس وهوى ، فيغتر ، و يستولي عليه التيه إدلالاً وامتناناً ، فيصيبه الفتور .

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حيناً ، ولكن تفرّسنا في أنفسنا ، و التنقيب عن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين : بدأ يربنا ملامح من التفسير لها ، إن وُعيت حق وعيها لكان فيها بإذن الله ثبات القلوب ، ولو قينا زلل الأقدام بعد ثبوتها .

• هو صفاء الابتداء

فأما الشاعر : فيشير إشارة عامة إلى تفسير مثل هذه الظاهرة ، ويقول :
وكل امرئ - والله بالناس عالم - **** له عادة قامت عليها شمائله
تعودها فيما مضى من شبابه **** كذلك يدعو كل أمر أوائله
والشاهد فيه : الشطر الأخير ، فكل أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها .
ولكن أساتذة التربية الأوائل قربوا أدنى من الشاعر ، فاتضح وانكشف لنا مذهبهم ، بما فصلوا وعينوا من معنى أوائل الأمور .
منهم من صاغ ذلك في حروف قليلة شاملة ، فقال : " الفترة بعد المجاهدة : من فساد الابتداء " .

ويريد بالفترة : الفتور .

³⁵ لوليد في مجلة التربية الإسلامية 7/636
³⁶ لوليد ، في أغاني المعركة 94 .

فهو الابتداء إذن ، أي الخطوات الأولى للداعية المسلم في طريق الدعوة الموصل إلى الله ، تكون صحيحة ، فيرتقي بلا فتور ونكوص ، وإن فتر فبمقدار لا يتعدى أدنى ما أثر من سنة النبي صلى الله عليه وسلم . وتكون معيبة هذه الخطوات ، فيفتر و ينكص عن الارتقاء .

ولكن من أين يعترض الداعية الفتور إذا دفعه مربوه بقوة أول مرة ؟ وكيف لا يتسارع في يومه وغده سير من قطع به أمسه مرحلة نحو غايته ؟ و من أيقن أنه يتبع رسولاً من أولي العزم ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا يستمد من عزمه ؟

فهي الخطوات الأولى إذن : من جعلناها له متقنة : ثبتت بعد ذلك قدمه ، بما يشاء الله ، ومن تركناه يضطرب فقد أعطينا لشیطانہ المقص يقطع به حبل ما بيننا و بينه ، يتربص لذلك غفلة .

فإن لم يحصل الشيطان على المقص ، وفاتته المفاجأة ، فإنه يقنع بأن يمسك طرف الحبل يفلّ خيوطه بتدريج ، ويلقي في نفس من اعوجت بدايته الدعاوي ، ويريه قليل خيره وعمله كثيراً ، حتى يستولي عليه الغرور والتناول ، فيرتكس هالكا .

وهذه العقدة الثانية للشيطان أبصرها آخر من الصالحين ، ووصفها يحذرن ، فقال : " إنما تتولد الدعاوي من فساد الابتداء ، فمن صحت بدايته : صحت نهايته ، ومن فسدت بدايته : فربما هلك " .

بل يهلك في الأغلب ، فإن مبني البداية على التجرد ، فإذا حرم من صفائه في الأول فإن بنيانه يظل مهترأً مهما شمش عالياً ، بل الخطر كل الخطر عليه في الحقيقة إذا شمش ، فإنه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة أو دعوة لمغنم ، لأن من شأن الشيطان أن يزين البدعة و يجلها ، و أن من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري ، ولئن تردد هذا الرجل الصالح فذكر مجرد الاحتمال و استعمل كلمة (ربما) ، ولئن تردنا فاقترضنا على (الأغلب) ، فإن ثالثاً قد جزم بذلك فقال : " من لم يصح في مبادئ إرادته : لا يسلم في منتهى عاقبته " .

وما هو بنسيان منه لمشيئة الله تهدي و تثبت من يختار ، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية ، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه واستقراء أحوال من عرفهم . وهكذا تكون عنايتنا بالابتداء خطأً بارزاً ظاهراً في فننا التربوي الحركي .

• وهي النية الحرة

وإنما يعنون بصفاء الابتداء معنيين يتتابعان في توال ، فيتلازمان : النية الصالحة ، والهمة العالية ، حصرهما البحري في شطر مبين و سماهما :

و النفس المضيئة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية ، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء .

وهي : (النية الحرة) التي ذكرها البحتري أيضاً في بيت آخر³⁸ ، فأحسن الوصف وأجاد ، فكأنها حرة مما يقيد غيرها ، من الأهواء والأطماع والمصالح ، لم يستعبدتها درهم ولا دينار ولا جمال أنثى ، ولم تكن رقيقاً لمنصب أو شهوة .

فالداعية لا يصدر قط عن شهوة ، ولا طلب مصلحة ، وإنما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الأجر .

وكذلك كان الصالحون .

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز الأموي رحمه الله فقال : " ما أحسب عمر خطأ خطوة قط إلا وله فيها نية " ³⁹ . ولذلك استطاع عمر في أقل من سنتين تقويم اعوجاج جيلين ، وعلى داعية الإسلام اليوم أن لا يستكبر عظم الانحراف الذي عمّ بلاد الإسلام ، فإنه - إن قَرَن كل خطوة بنية مثل الراشد الخامس - سيهزم حزينين بإذن الله في أقل من سنتين .

و يتعاطم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد ، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك رحمه الله محض التجرد حين عقد له واستخلفه وقال :
" لأعقدنَّ عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب " ⁴⁰ .

بل العمل الصغير بالنية يعظم ، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله : " رُب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية " .

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثراً من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس ، كما ينص على ذلك طب عبدالقادر الكيلاني في قوله : " كن صحيحاً في السر : تكن فصيحاً في العلانية " ⁴¹

وأما المخلط في نيته فيخلط عليه في أموره وسيرته ، كان ذلك في التاريخ على أهل التخليط حتماً مقضياً ، وهو المعنى الذي كشفه التابعي الجليل مُطَرِّف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشخّير العامري في قوله : " صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا : صُغّي له . ومن خلط : خُلط عليه " .

³⁷ ديوان البحتري 1/29 .

³⁸ ديوان البحتري 6/40 .

³⁹ سيرة عمر لابن عبد الحكم 30/29 .

⁴⁰ سيرة عمر لابن عبد الحكم 30/29 .

⁴¹ الفتح الرباني 64 .

ونتيجة التخليط أن يضطرب القلب في فوضى تعدم السكينة ، و " إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك ، وتترك الفوضى في قلبك " ، كما يقول مصطفى صادق الرفاعي⁴² .

فاعرف سياسة النفس هذه أيها الداعية ، وأتقن ولوجها قبل ولوج سياسة الحكم ، فإنه : " فرض على العامل أن يعرف النية من الأمانة " ، كما قيل .

فهناك نية وهناك أمانة ، والأمر كما قال يحيى بن معاذ : " لا يزال العبد مقروناً بالتواني ، مادام مقيماً على وعد الأمانى " ⁴³ .

وما اختار أحد الأمانى تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطأً ، ووجد ثم السراب الخادع ، وعَدِم الماء وقت العطش ، وأما المضيء النفس ، ومن لا أمانة له من الدعاة ، فإنه تجده سبّاقاً إلى كل خير أبداً ، وتجده على ري دوماً فإنه إن كان ذا قوة : استقى لنفسه ، أو استسقى ، فيجيبه الله بهطل من السماء ، وإن كان مستضعفاً : وجد وريثاً لموسى عليه السلام ، يسقي له ويزاحم الرعاع .

• وهو قدم الهول

والهمة قرينة النية ، فلا شيء بعد النية قبلها ، وكل الاتقان بعدها ، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الأولى فقد ضمن لهم الاستمرار إن شاء الله ، و قد قيل : " همتك أحفظها ، فإن الهمة مقدمة الأشياء ، فمن صلت له همته وصدق فيها : صلح له ما وراء ذلك من الأعمال " .

ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف ، فيقول : " مثل القلب مثل الطائر ، كلما علا : بعد عن الآفات ، وكلما نزل : احتوشته الآفات " ⁴⁴ .

فكما أن الاستعلاء بالهمة يبقي القلب نظيفاً بريئاً من المعنى الخسيس مشغولاً بالعظام ، فإنه أيضاً يبقي القلب الآفات والأمراض وسهام الشيطان ، كما تقي نهضة الجناحين الطائر سهام الصيد ، و مهمة المربي المسلم : أن يعلم الناشئ هذه النهضة العالية في مبادئ محاولاته .

و نهضة الجناحين هي بدورها كناية عن النفس التي احتوت تصميماً على حمل أثقال الدعوة إلى الله ، فإن الجديد في سلك الدعوة إن فهم الدعوة في الأول مجرد تزكية نفس ، و صحة أخيار ، وبث أشواق ، وفرصة تكافل ، فإنه يحجم عن إنكار المنكر على الظالم ، و يستعصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة ، والتي فهمها من قبله الرجال ، ويرجع عن الزحف يوم الزحف و قائمة أعداره تحت أحد إبطيه ، أولها : أنه

⁴² وحي القلم 2/44 .
⁴³ تاريخ بغداد 5/184 .
⁴⁴ الجواب الكافي 70 .

لم يُنذر بمثل هذا من قبل ، ولا يحتوي هذا الشرط عقده ، ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون أول خطوة للسالك : خطوة هَوَل ، كخطوة السبعين من قدماء الأنصار ساعة بيعة العقبة حين أخذوا على أنفسهم أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه نسائهم وأبنائهم وأموالهم .

فهو هَوَل الجهاد ، أو هَوَل الإنكار ، وليس ما في التجافي عن دار الغرور ذات الشهوات و التقليل من الأموال و الملذات بأقل من هذين الهولين .

فإن أحب الدنيا فإنما يحبها كحب محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه ، ذلك الحب الذي يكشف عن همة عالية وراءه ، والذي ترجمه مخاطباً تلامذته :

" والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة ، ولكن لذكر الله ، ولقراءتي عليكم الحديث " 45

وإنما ذكر الحديث كمثل لجنس الصالحات التي يجب على الداعية أن يحب الدنيا لأجلها لا لغيرها .

وعن أجيال السلف أخذ جيل المجددين في هذا القرن فقه الهمة ففهم الإمام حسن البنا أن الداعية الهمام : " يبذل كل ماله ، وكل دمه ، وكل نفسه ، في سبيل عقيدته التي آمن بها وعاش من أجلها " 46 .

4- نحو أفراح الآخرة

لقد وصف الصالحون لنا سمات الابتداء لناخذ بأحسنها ، و لئن كان بعضنا ينسى ، في ظروف غفلة ، فإن الله خير الغافرين ، وليس له أن يقعد بعد الذكر مع القوم الغافلين ، وإن عنده لآخر من فقه الأولين تعينه على سلوك سبل الرشيد الفجاج الواضحة الموصلة إلى رب العالمين .

وإن تقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود تقوى الجوارح ، كما قال تعالى : { ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } . وقال : { لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم } . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (التقوى ها هنا) ، وأشار إلى صدره .

" فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية ، مع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشاق ، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير ، والتقدم والسبق إلى

⁴⁵ تاريخ بغداد 1 / 352 .
⁴⁶ مذكرات الدعوة والداعية 233 .

الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة ، مع سكونه ، صاحب العمل الكثير بمراحل)⁴⁷

• استعلاء .. ثمنه التعب

وإنما أرشدك الصالحون طريق الاستعلاء والسيادة بالنية والهمة ، وعليك تعب وركوب مصاعبه ، وذلك : إن السيادة نهج واضح الوعر .

وليس أمرها بالهين ، وإنما هي قول ثقل ألقاه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أتباعه : يجب أن يسودوا .

ويمكن لهذا الثقل أن تخففه النية ، فيتعاضم تأثير التعب القليل بصلاحها ، كما أشار الذين وصفوا الابتداء ، ولكن هداية القلب ، وإضاءة النفس ، ونهضات الهمة ، إنما يذكهن الجد ، فمن أرادهن دائماً : أدام جده ، وهو معنى قولهم : (استجلب نور القلب بدوام الجد)

فلا بد من الجد الدائم ، لأن خواطر الفكر دائمة ، وحركات الجوارح متصلة ، فإن لم يكن الجد معهن دائماً : شغلن ما هو دونه أو ضده ، فيكون الهبوط من بعد الاستعلاء ، يحذر إياه عبد الوهاب عزام ، وينبهك أن :

" الفكر لا يحد واللسان لا يصمت ، والجوارح لا تسكن . فإن لم تشغلها بالعظام : شغلتها الصغائر .

و إن لم نُعملها في الخير : عملت في الشر .

إن في النفوس ركوناً إلى اللذيق والهين ، و نفوراً عن المكروه والشاق ، فارتفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق ، ورضها ووسسها على المكروه الأحسن ، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها ، وحتى تنفر عن كل دنية و ترباً عن كل صغيرة .

علمها التحليق : تكره الإسفاف . عرّفها العز : تنفر من الذل .

وأذقها اللذات الروحية العظيمة : تحقر اللذات الحسية الصغيرة " ⁴⁸

• وأنت صاحب إيمان :

" وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان ، لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس ، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن ، وتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة ، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصورات ، و بعباداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

⁴⁷ الفوائد لابن القيم 140 .
⁴⁸ مجلة المسلمون 1/595 .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض } ، وأول ما تفسد : فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح ، وتسترخي معه الهمة ، و يتلفها الرخاء و الطراوة ، ثم تأسن الحياة كلها بالركود ، أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها ، كما يقع للأمم حين تبثلى بالرخاء " 49

• وأتعب الناس من جَلَّت مطالبه

• وأنت حر كريم

و " لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة و مبلغ القدرة ، مستمداً قوة من بعد قوة ، محققاً السحر القادر الذي في نفسه ، متلقياً منه وسائل الإعجاز في أعماله ، مرسلاً في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذي عينين إنه النجم لا شيء آخر " 50

• و أنت صاحب غاية :

و إنما يوصل الداعية إلى غايتها : " شغفه بدعوته و إيمانه ، و اقتناعه بها ، و تغانيه فيها ، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله ، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسية للدعاة " 51

• و أنت طالب نفوذ إلى الله .

و " طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة ، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة ، بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً ، حاكماً على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه إليه ، عارفاً بطريق الوصول إليه ، والطرق القواطع عنه ، مقدم الهمة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عدل عادل ، كثير السكون ، دائم الفكر ، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته ، لا تستنفره المعارضات ، شعاره الصبر ، وراحته التعب " 52

• محنة الفراغ و الغفلة

و يجتمع هذا الكلام الحق ليقرر أن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له ، ولا في سجنه ، و تعذيبه

و تجويعه ، بقدر ما تكمن في استرخاء همته و التذاده بالراحة .

ما محنة الداعية إلا لهوه و غفلته و جلوسه فارغاً ، وربما زاد فينفتح له باب من اللغو بعد اللهو .

49 هذا الدين لسيد قطب 10 .

50 وحى القلم للرفاعي 1/65 .

51 للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة و الداعية .

52 لابن القيم في الفوائد 19 .

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات و أسباب لهو تلفت أنظارهم إليها .

وما انتصار الداعية إلا في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته .

إن غفلة الداعية محنة لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب ، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد .

وسيطل اسمنا مكتوباً في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلا فضول أوقاتنا ، وما دمنا لا نشغفها حباً ولا نتخذها حرفة .

إن الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة ، وإنما هو - كما شبهه بعض الأفاضل - (وقف لله تعالى) .

تماماً كنسخة من كتاب نافع حين توقف لله تعالى وتوضع في مسجد من مساجد الله ، فكل داعية موقوف لله ، في جزء من أجزاء دعوة الله .

و إن فضول الأوقات ليست قليلة و محدودة فحسب ، و إنما هي أردأ ساعات اليوم ، حيث يكون فيها الذهن و الجسم متعبين أشد التعب .

و ما تجاوز الأستاذ المودودي - رحمه الله - أعراف أجيال الدعاة حين صارحنا في تذكّره القيمة وقال :

" إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نارا متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب ، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده ، ولا تزال تقلقه و تضطره إلى بذل الجهد والسعي .

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم و تعمر قلوبكم بالطمأنينة ، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية و قضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين . وعليكم بالسعي أن لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم و جهودكم ، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة وهذه العاطفة مالم تكن راسخة في أذهانكم ، ملتحمة مع أرواحكم و دمائكم ، آخذة عليكم البابكم وأفكاركم ، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم " ⁵³

و لم يتجاوز حين كرر و قال ثانية أن : " اسمحوا لي أن أقول لكم أنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم فإنكم لا بد أن تبوءوا

بالفشل الذريع ، بفشل لا تتجراً بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة

من الزمان ، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهموا بالخطوات الكبيرة " ⁵⁴

إن من يطالب الآن بإلغاء الراحة فإنه إنما يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سنها عمر الفاروق رضي الله عنه ، تنطق بصراحة أن : (الراحة للرجال : غفلة) ⁵⁵

وجدها إمام المحدثين شعبة بن الحجاج البصري فقال : " لا تقعدوا فراغاً فإن الموت يطلبكم " .

ذلك أن من أراد الراحة و السكون فإن الموت و القبر يزودانه منهما حتى يشبع . وكأننا – والله – قد أسرفنا في الغفلة ، ولا بد من عزيمة نغطم بها نفوسنا عن اللهو .

إننا حين نثبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم من نخاطبه أننا لا ندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهابية ، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جواباً لنا حين سأله سائل : " أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ " فقال : " عند نفسك من الغفلة ما يكفيها " ⁵⁶

فإن اعترض معترض : أتينا به بمثل كلام ابن القيم حيث يقول : " لا بد من سينة الغفلة ، ورقاد الغفلة ، ولكن كن خفيف النوم " ⁵⁷

فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لإطلاقات من عاب الراحة من إرهاق ، وإنما نريد – كما أرادوا – تقليلها إلى أدنى ما يكفي الجسم ، كل حسب صحته و ظروفه ، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمن أشد حاجة للانتباه و معالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية ، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل ، ويسوده التواصي بالحق ، والردائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء و سيوف الأمراء ، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصراً بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف ، وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب ، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا

⁵⁴ تذكرة دعاة الإسلام 59 .
⁵⁵ أدب الدنيا و الدين للماوردي 82 .
⁵⁶ ذيل طبقات الحنابلة 1/ 422 .
⁵⁷ الفوائد 41 .

يشعر بهذا المسموع والمنظور ، فضلاً عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها ، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف .

و ما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي - رحمه الله - لهذه الحقيقة حين يقول : " إن هذه المدنية السقيمة ، المصيرة للأرض كبلدة واحدة ، يتعارف أهلها و يتناجون بالإثم وما لا يعني ، بالجرائد صباحاً و مساءً ، غلط بسببها و تكاثف بملاهيها حجاب الغفلة ، بحيث لا يخرق إلا بصرف همّة عظيمة " .

فكن خفيف النوم أيها الداعية المسلم لتحصل لك هذه المهمة العظيمة .

و انتّه من رقدة الغفلة **** فالعمر قليل

و اطّرح سوف وحتى **** فهما داء دخيل

وعبر الصالحون عن هذه المعاني أحياناً بلفظ آخر سموه : حفظ الوقت ، أو مراعاة الوقت .

فيرى الإمام البنا أن : " من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة فالوقت هو الحياة " . أو كما قال في خطبة المؤتمر الخامس : " إنما الوقت هو الحياة " يخالف بذلك قول الماديين : الوقت من ذهب . وكان - رحمه الله - يحب أن يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده ، فينوي لكل ساعة نوع خير ، و : " ينام على أفضل العزائم " ⁵⁸

و ترك الفراغ ، والاستيقاظ من رقدة الغفلة ، معناهما التعب ، ثم التعب ، و استفراغ الوُسع في العمل لله . نطق بذلك الإمام الشافعي ، ونفى أن تصح مروءة داعية يطلب الراحة ، فقال :

" طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات ، فإن أحدهم لم يزل تعباً في كل زمان " . ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله ، قال : " إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة " ⁵⁹ .

فالداعية الصادق يخلع الراحة ، ويعود لا يعرفها ، وتصبح عنده ذكريات شبابه الأول وصباه فحسب .

وأما الإمام أحمد فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الأوصاف عملاً ، حتى قال لابنه : " يا بني : لقد أعطيت المجهود من نفسي " ⁶⁰

⁵⁸ مجموعة رسائل الإمام 498 .

⁵⁹ تاريخ بغداد 3/75 .

⁶⁰ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي 339 .

يعني في المحنة ، وبذلك حدّ حدّاً لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه ، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه ، و استفرغ كل طاقته في خدمة الدعوة .
طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه ، ومقدار قدره للدعاة ليس لهم أن يقفوا دونه نصيباً مفروضاً ، هو : المجهود من النفس ، وعلامته حين المحن : الصبر على الأذى حتى الموت . وعلامته في حياتك اليومية : أنك إن جئت إلى فراشك ليلاً لتنام وجدت لركبتك أنيناً ، و في عضلاتك تشنّجاً ، لكثرة ما تحركت في نهارك .
وإنما نسميه التعب ، والأنين ، و التشنّج ، لغرض تفهيم الداعية الجديد ، لأن هذه الاصطلاحات هي لغة أهله و عموم الناس الذين تركهم من قريب ، و أما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو إليه نفوسهم ، و عنهم نقله الباحث في وصفه لممدوحه حين يقول :

قلب يطل على أفكاره ، ويدّ **** تمضي الأمور ، ونفس لهوها التعب⁶¹
ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرماناً من لذة ، و خداع ألفاظ ، و غواية اتباع الشعراء ، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف أن الراحة الحقيقية : راحة الآخرة ، لا راحة الحياة الدنيا ، ولذلك لما قيل للإمام أحمد : " متى يجد العبد طعم الراحة ؟ " قال : " عند أول قدم يضعها في الجنة " ⁶²

و لما تعجب غافل من بادل وقال له : " إلى كم تتعب نفسك ؟ " كان جواب البادل سريعاً حاسماً : " راحتها أريد " ⁶³
" فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته : جعله عمارة لقلبه وروحه . وكلما نقص شيء من دنياه : جعله زيادة في آخرته . وكلما منع شيئاً من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته . وكلما ناله هم أو حزن أو غم : جعله في أفراح آخرته " ⁶⁴
و من لمح فجر الأجر : هان عليه ظلام التكليف ، كما يقول ابن الجوزي .
و لعمرؤ الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطرنا ليعقل مراده الراقدون .

5- الأخوة شعار دعوتنا

التسبيح في دقائق الأسحار الغالية ، والتعامل الأخوي الإيماني : ركيزتان متلازمتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وعينان نضاحتان ، تسكبان خيراً للدعاة لا ينضب .
إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم ، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه " ⁶⁵

⁶¹ ديوان البحري 1/ 172 .
⁶² طبقات الحنابلة 1/293 .
⁶³ الفوائد لابن القيم 42 .
⁶⁴ الفوائد لابن القيم 189 .
⁶⁵ الطلال 32 - 4/22 .

• التقوى أولاً

وإنما التسبيح عنوان الإيمان وإسلام النفس لله تعالى ، والإيمان عنوان التصور الموزون ، وضمانة الثبات أمام مخاطر الطريق .

" ركيزة الإيمان والتقوى أولاً .. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل .. التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تغتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ ثِقَاتِهِ } .. اتقوا الله - كما يحق له أن يُتقى - وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطبقها . وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له أشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ وإلى مرتبة وراء ما ارتقى ، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام !

{ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه ، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً . وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه . وهو المعنى الذي تقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منها .

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقيق و جودها وتؤدي دروها ، إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً ، ولا يكون هناك منهج الله تتجمع عليه أمة ، إنما تكون هناك مناهج جاهلية ، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية ، إنما تكون القيادة للجاهلية " 66

" لا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر ، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي ، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل ، ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضيلة والرديلة ، وللمعروف والمنكر ، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال . وهذا ما يحققه الإيمان بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه ، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون .. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية ، ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد ، ومن سلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك . ثم لا بد من الإيمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير ، الأمر بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، أن يمشوا في هذا الطريق الشاق ، و يحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ،

ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم ، وثقل المطامع ... و زادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان ، وسندهم هو الله .. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينغد ، و كل عدة سوى عدة الايمان تغل ، و كل سند غير سند الله ينهار " 67
و يحدثنا إقبال عما فعله هذا الإيمان من توحيد التصور الذي انتبه إليه سيد قطب فيقول :

وُجِدَ الرئي لنا و الفكرة ** كسَهَام جمعتها جعبة**

نحن فكر و خيال واحد ** ورجاء و مآل واحد 68**

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد ، بأدنى ما يكون من الوسائل ، فالرؤية واحدة ، والفكر والخيال واحد ، والرجاء واحد ، والمصير واحد ، كل ذلك يعطيه الإيمان ، وما أسهل تناوش من ملك القلب لهذا الإيمان البسيط ، ذي الأعطيات الثمينة .
• و نشني بالأخوة ..

" أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة .. الأخوة في الله على منهج الله ، لتحقيق منهج الله : { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً } وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون { ..

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام .. من الركيزة الأولى .. أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ونهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر ، وعلى أي هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة !

{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتنّ الله بها على الجماعة المسلمة الأولى ، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً " 69

" وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين .. على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله سبحانه ، وتمثل صفاته في الضمائر ، و تقواه و مراقبته ، و اليقظة و الحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب : الحب الفياض الرائق . والود : الود العذب الجميل . و التكافل : التكافل الجاد العميق .. و بلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً ، لولا أنه وقع ، لعد من أحلام الحالمين ! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ،

67 الطلال 4/22 - 32 .
68 ديوان الأسرار و الرموز 89 .
69 الطلال 4/23 - 28 .

ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة ! وهي قصة وقعت في هذه الأرض ،
ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد و الجنان !
وعلى مثل ذلك الإيمان ، ومثل هذه الأخوة ، يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان
(70

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة ،
فإن الأخوة شرعية دعوتنا وشعارها واسمها ، وميثاقها الذي واثقنا به ، وكتابها الذي
كتبته على نفسها ، وما زالت تأتي دعوتنا المباركة بصائر جديدة من تجاربها المتكررة
تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضائل وتجميع أنصارها إلى الله على
التحاب ، والتكافل ، و التسامح ، و مكملات هذه الرواسي الشامخات ، وكمالها أن ترى
من بعد وحدة الرؤية و الفكر و الخيال و الرجاء و المصير : وحدة القلب و الروح ، بل و
وحدة اللفظ أيضاً ، فلا تكون هناك إلا صيحات واحدة . بحروف متقاربة ، تعبر عن مفهوم
واحد ، كما أراد إقبال حين يقول :

نحن من نعمائه حلف إخاء **** قلبنا و الروح و اللفظ سواء 71

فلم يقنع بوحدة القلب ، حتى توحدت الألفاظ .

• عقد الأخوة

و يظل هذا الاتحاد يتنامى حتى يكون عقداً واجب الوفاء ، فقد تكلم ابن تيمية عن (عقد الأخوة) هذا وبين أن الحقوق التي ينشؤها إذا كانت من جنس ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فإنما هي : " حقوق واجبة بنفس الإيمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله ، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة " 72

فيأتي العقد يؤكد هذا ، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الأنصار و المهاجرون يتوارثون بالتأخي الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم بينهم أول مقدمه المدينة ، فقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك ، وأجازه أبو حنيفة و أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه .

إن هذا العقد الأخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتاً ، وما نراه إلا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية رضي الله عنه تؤكد بيعته الأولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت

70 الطلال 4 / 23 - 28 .
71 ديوان الأسرار و الرموز 89 .
72 مجموع فتاوى ابن تيمية 11/101 .

الشجرة ، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله : (بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، فقال لي : يا سلمة : ألا تبائع ؟ قلت : يا رسول الله قد بايعت في الأول . قال : وفي الثاني) ⁷³ ، فذلك المسلمون : أوجب الإسلام على بعضهم البعض حقوقاً ، ويتبايعون بعقد أخوة في الثاني ، زيادة خير ، وابتغاء توثق ، وعنصر تذكير ، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال - رحمه الله - في رموزه حين يقول :

كل فرد بأخيه ائتلفا **** مثل در في سموط ألفا

لفهم في عيشهم معترك **** كل فرد بأخيه ممسك

من جذاب تتوالى الأنجم **** كوكب من كوكب مستحكم ⁷⁴

وهكذا ، فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثنى من غدوة يهب فيها لدعوته - بفضل الله - ناشئاً يغمس نفسه فيؤزره ، فيستغلظ ، فيستوي على عقد الأخوة ، يعجب الدعاة ، و يغبط به الكفار .

ميزان التصاحب

وهكذا تكون الأخوة بين الدعاة هي الركن المهم في تربيتنا بعد الصلاة والتسبيح ، وما من جزء من أجزاء الحركة الإسلامية يقذف بنفسه في ميدان العمل العام قبل إحلال معاني الأخوة الإيمانية في أعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتفريطه ، ولا مناص من أن تدرج بدايته على طرق الإيمان واستغلال دقائق الليل الغالية ، ويكون فيه (أدب الأخوة) مترجماً في تناصح وتكافل وتحابب يجمع القلوب ويعلمها التحالم - إن لم يكن الحلم - عند إبطاء المقصر و تجاوز الملحاح ، مثلما يعلمها المكافأة و الوفاء و الشكر عند إسراع المبادر و عدل خفيض الجناح .

لقد أحب الإمام البنا هذا الأدب للدعاة ، ووضع له منهجاً بحيث " يرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليات " ⁷⁵ ، ورأى رحمه الله من تأخي الرعيل الأول ما أقر عينه حياً ، وبرهان وفاء محبيه من بعده أن يكونوا دوماً عند محاسن هذا الأدب ، و أن يغيثوا إليه عند أول انتباهه إذا أنستهم الغفلات .

إنها نعمة الأخوة .

يجعلها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أثنى منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الإسلام فيقول : (ما أعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح ، فإذا رأى أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به) .

⁷³ صحيح البخاري 9 / 98 .

⁷⁴ ديوان الأسرار و الرموز / 84 .

⁷⁵ رسالة النعاليمة / المجموعة 28 .

و يسميها التابعي مالك بن دينار : روح الدنيا ، فيقول : (لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة : لقاء الإخوان ، و التهجد بالقرآن ، و بيت خال يذكر الله فيه) . و يحكر لها الشاعر صفة الذخيرة ، فيقول :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة **** و لكن اخوان الثقات الذخائر
و لهذا كثرت توصية السلف باتقان انتقاء الأخ صاحب ، لتصاب الذخيرة الحققة ، والروح الحققة ، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أن : (إن لك من خليلك نصيباً ، وأن لك نصيباً من ذكر من أحببت ، فتنقوا الاخوان و الأصحاب والمجالس)⁷⁶
فأما أولاً : فقد عمموا صفة الخيرية بإطلاق تحكم الانتقاء ، وعبروا عن ذلك بقولهم :
أنت في الناس تقاس **** بالذي اخترت خليلاً
فاصحب الأخيار تعلو **** و تنل ذكراً جميلاً⁷⁷
ثم خصصوا ففسروا الخير بالتقوى ، وقالوا :

نافس ، إذا نافست في حكمة **** آخ ، إذا آخيت ، أهل التقى
ما خير من لا يرتجي نفعه **** يوماً ، ولا يؤمن منه الأذى⁷⁸

ثم زادوا و ذهبوا أبعد ، فعددوا صفاتهم ، يعينونك على دقة الاختيار .
❖ أعلى صفاتهم : طيبة القول ، ذكرها عمر رضي الله عنه فقال : " لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع جبينني لله في التراب ، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر ، لأحببت أن أكون لحقت بالله " ⁷⁹
❖ و من صفاتهم : أن أحدهم : (يرفع عنك ثقل التكلف ، و تسقط بينك و بينه مؤونة التحفظ . و كان جعفر بن محمد الصادق - رضي الله عنهما - يقول : أثقل اخواني علي : من يتكلف لي وأتحفظ منه ، و أخفهم علي قلبي من أكون معه كما أكون وحدي)⁸⁰

❖ و من صفاتهم : ترك حضيض الدينار والدرهم ، و السمو إلى العلا ، وضربوا لذلك الإمام أحمد بن حنبل في انتقائه الأصحاب مثلاً ، وذلك حين يقول الذي يطريه :

و يحسن في ذات الإله إذا رأى **** مضيماً لأهل الحق لا يسأم البلا
و أخوانه الأدنون كل موفق **** بصير بأمر الله يسمو إلى العلا⁸¹

⁷⁶ كتاب الزهد لابن المبارك 232 .

⁷⁷ نفح الطيب للمقرئ 8/67 .

⁷⁸ لأبي العناهة في ديوانه 25 .

⁷⁹ الزهد لابن المبارك 416 .

⁸⁰ أحياء علوم الدين 2/188 .

⁸¹ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي 114 .

❖ و من صفاتهم : مذاكرة الآخرة ، كما قال الحسن البصري : " إخواننا أحب إلينا من أهلنا و أولادنا ، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا و إخواننا يذكروننا بالآخرة " ⁸²

❖ و من صفاتهم الإيثار ، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حياوي لهم حين يقول :

أبدأ أطل مع الثقة ، مع الدعاة العاملين

الناشرين لواء أحمد عالياً في العالمين

المنصفين المؤثرين على النفوس الآخرين

معهم أطل ، مع الثقة ، مع الدعاة المسلمين ⁸³

❖ و من صفاتهم : بذل النصح ، فأحدهم : (صالح يعاونك في دين الله ، و ينصحك في الله) .

• آفات المجالس :

وهذا الانغماس يؤدي إلى الاجتماع والمجالسة بالتالي ، ولذلك وجب التعرف على سيماء المجالسة النافعة ، و الابتعاد عن بعض المعايير التي تلحقها .

ويجمع ذلك : تحري النفع في الدين فإنها الكلمة الجامعة المانعة ، والمادة الموجزة في قانون التأخي ، يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فيقول : " إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه " ⁸⁴

فشأن كل داعية ناشئ أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها إيمانه وعلمه ، وأن يقصد المجالس التي تنفع دينه ، ولا يعرف مجالس اللغو و اللهو و قتل الفراغ . وشرح ذلك إقبال بشطر حاسم ، يريد لنا أن لا نطيل القول بعده ، فقال يدعو الله عز و جل :

هـب نجياً يا ولي النعمة **** محرماً يدرك ما في فطرتي

هـب نجياً لقنا ذا جنة **** ليس بالدنيا له من صلة ⁸⁵

فهذا جماع القول :

إن صاحب الداعية المسلم : داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة .

صلته بالآخرة ، و شوقه إلى الجنة .

بينه و بين الدنيا انقطاع و جفاء .

إن تحريت عنه : وجدته .

⁸² إحياء علوم الدين 2 / 176 .
⁸³ مجلة التربية الإسلامية 7/55 .
⁸⁴ تهذيب التهذيب 2/396 .
⁸⁵ ديوان الأسرار و الرموز 71 .

إنه هو صاحبك .

آخه ، وأحبيه ، واصحبه ، وأعطه مثل الذي يعطيك ، وإلا فإنك أنت العاجز ، فإنه كان يقال :

" أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان , و أعجز منه من ضيع من ظفر بهم) .

فاطلب الإخوان ، نرفع عنك صفة العجز . ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك ، يدل على تجربة داعية من أهل الوعي ، شخص فيه أخطار المجالس فقال : " الاجتماع بالاخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع و شغل الوقت ، فهذا مضرته أرجح من منفعته ، و أقل ما فيه أنه يفسد القلب و يضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة و التواصل بالحق و التواصل بالصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة و أنفعها ، و لكن فيه ثلاث آفات :

أحدها : تزين بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام و الخلطة أكثر من الحاجة .

الثالثة : أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود " ⁸⁶

والذي يؤسف له أن مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية ، ووجد التزين وسيلة ليظهر فينا ، وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة وتحولت إلى شبه بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل مع الناشئة والجدد ، وفي الانطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الإسلام .

• و المرء يعجب من صغيرة غيره !

و لو أن عادتي التزين و البطالة تقفان عند حدهما لعولج أمرهما بمجرد استنهاض وتذكير خفيفين ، ولكن هاتين الآفتين تتعديان في آثارهما ، ويتولد عن اجتماعهما خلق الضيق عن العفو ، بينما يشير استقرار الحياة الجماعية إلى ضرورة خلق التسامح والمرونة لمن يحياها .

وقد يظن البعض أن مثل هذا الكلام أقرب إلى مواعظ العامة منه إلى بحوث فقه الدعوة ، ولكن من يعاني إدارة العمل اليومي للدعوة الإسلامية يدرك ضرورته ، و يعرف كم من الترف ، بل و الخطر ، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المواعظ ليهمس بمعاني فنون التخطيط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح و العفو عن صاحب الزلة و الخطأ ، ولا بد من اقتران التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الإيمانية ، ولا بد من سيرهما معاً .

⁸⁶ الفوائد لابن القيم 51 .

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين و المعاصرين على التوصية بسعة الصدر ، و التحابب الأخوي .

يقدمهم الفضل بن عياض فيقول : " من طلب أخاً بلا عيب صار بلا أخ " فضع في حسابك عندما تعقد (عقد الأخوة) أن من تتعاقد معه غير معصوم .

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية ، فيقول مشرقهم :

لا لوم في خطأ ولا تشريبا

و يقول مغربهم :

سامح أخاك إذا أتاك بِزَلَّة

ويقول ثالثهم :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة **** فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

أحب الفتى ينغي الفواحش سمعهُ **** كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى **** ولا مانع خيراً ، ولا قائل هجرا

ولكن كم أرتنا الأيام من قال هجرا ، وتراه إذا ما دعوته إلى اللين يعبس ويبسر ، و يذهب مغاضباً ، كأنما تدعوه إلى شيء نكر ، و إنما هي سذاجة نفسه نريد أن نقيه إياها ، وإنما هو تربص العدو نريد أن نبعده عنه ، بما عرفنا عن عدونا من قعوده للدعاة صراط أخوتهم المستقيم .

وهاؤم تفحصوا تاريخنا ، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصم ، فما استطاع من قيام وما كان منتصراً ، و لفته دوامة العيش المعقد فضاع في خِصَمِّها منسياً ، يأكل و يشرب ، و ليس له من بعد ذلك نوع وجود .

إن جموع هؤلاء المغاضبين إنما تأخرت و ضاعت في تيار الدنيويات بما كانت بموازين الأخوة تخل ، ولو أنهم استقاموا على الطريقة الأولى وراغوا إلى فقه الأخوة الموروث ، لما مسَّهم اللغوب و الضياع .

إن الفقه الذي ورثناه عن التابعي بكر بن عبد الله المزني ينص على إنك : " إذا وجدت من أخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثته ، فتب إلى الله تعالى ، و إذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى) .

فاتهم نفسك إذا عوملت بجفاء أو رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه قبل أن تبادر بالهجوم .

إن هذه النصوص القديمة من فقه الأخوة الإيمانية ، يصوغها عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثانيه و يقول :

في فؤادي بحران : ملحٌ وعذب **** وبه صرصر وريح رخاء
فهو مُرٌّ على البغاة عصوف **** وهو عذب لصاحبي و صفاء ⁸⁷
فأنت مطالب أيها الداعية المسلم أن تملأ قلبك من مشاعر الأخوة في الله لإخوان
العقيدة بقدر ما يجب أن تضع فيه من مقت أهل الباطل البغاة .

سادساً : أشجار الإيمان

وحدة العبودية ، و تكاملها ، في أجزاء هذا الكون ، لله تعالى الذي خلقه : حقيقة يراها
المتفكر ، إذا استطاع أن يغلت من الصخب الملهي و يتأمل في هدوء و روية .
منها : عبودية لا تشوبها الوسائس ، لبساط الأرض جميعه ، حشائشه و الباسقات ،
نبهك القرآن لها ، في قوله عزّ وجلّ : { والنجم و الشجر يسجدان } .
قال الطبري : " يعني بالنجم : ما نجم من الأرض من نبت ، وبالشجر : ما استقل على
ساق " ⁸⁸

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة ، يديم له سجوداً
قلبياً ، آيته الرضا عن الله ، والتسليم لحكم حلاله وحرامه ، به يستكمل سجود جبهته
مغزاه .

ومتى ذاق المؤمن ، بالخلوات المسترسلة ، لذة مراقبة هذا السجود الأخضر ،
المتوشح بألوان الزهر ، وأذن لقلبه أن يبالغ في الهبوط مقلداً ، حتى يلامس أوطأ
الإخبات : نادى غيره للمشاركة ، وعرض عليه الرفقة ، منخلعاً عن حسد واحتكار .
وتلك هي دعوة إقبال ، لما ظفر بسر السياحة الإيمانية الصامته ، في البراري الناطقة ،
ونبهك إلى إنصات واجب ، لتسبيح دائب ، و أوصاك أن :

دع الدور و اطلب فسيح البراري **** و انظر إلى صفحات الجمال

على حافة الماء دون ملال **** تأمل ترقق ماء زلال

وحدق إلى نرجس ذي دلال **** وقبّل عيوناً له كاللآلي ⁸⁹

و كان عبد الوهاب عزام أول مجيب له ، وطفق يستغرق في التأمل ، فرآه جاهل بما
هنالك فأنكر عليه ، فقال :

لست أخلو لغفلة و سكون **** وفرار من الورى و ارتياح

إنما خلوتي لفكر و ذكر **** فهي زادي وعُدّتي لكفاحي

⁸⁷ ديوان المثنائي 38 .

⁸⁸ تفسير الطبري 1/516 - طبعه دار المعارف .

⁸⁹ ديوان رسالة المشرق 30 .

و ما زاد بهذا على أن جدّد مذهباً سالفاً ، و عرفاً عند أول المسلمين ، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعلم و التعليم ، والأمر و النهي ، و ضرورات المعيشة ، يميلون فيها إلى التفرد خارجاً ، والركون إلى أرباض مدنهم ، و الجلوس بين الزروع ، يرجون لأنفسهم بصائر و تذكرة .

وروى ابن القيم أن شيخه ابن تيميه ، رحمهما الله ، كان يتركهم غادياً بعد الفجر مراراً ، فراقبه ، فوجده يعتزل في غوطة دمشق و حقولها ، حتى غدت عنده عادة .

وما ذاك على أسلوب القرآن بغريب ، ولا على رموز النص الشريف المأثور و تشبيهاته ، بل هو ارتباط واضح خلالهما بين الخضرة و خصال الفطرة ، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير و التمثيل ، في نحو على منحاهما ، يدلك على قلوب فقهاء المناسبة ، واستوعبت الإشارة ، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر و معاني الإيمان إنها غاية من أشجار الإيمان ، فيها أيك ملتف متشابك ، تجعل سيرك في ظل وارف ، و مداعبة من زكي العبيق .

• تفجؤك فيها شجرة التوحيد .

وهي شجرة غرسها القرآن ، تستلقي تحت أغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى :

{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها ، و يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون }

قال ابن القيم : " فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين . و إذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب ، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت ، بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، و قيامه بحقوقها ، ومراعاتها حقّ رعايتها " ⁹⁰

و من السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح ، وقال الربيع بن أنس : ذلك المؤمن ، أصل عمله ثابت في الأرض ، و ذكره في السماء .

قال ابن القيم :

⁹⁰ إعلام الموقعين عن رب العالمين 1/188 طبعة الوكيل .

" ولا اختلاف بين القولين ، و المقصود بالمثل : المؤمن ، و النخلة مشبهة به ، وهو مشبه بها " 91

❖ و من مكانك تحتها تشم عير ورود بقربها ، من شجرة تسمى شجرة الطاعة ، شهدت منحة الرضوان ، لما أسبغت ، يوم نزلت : { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً } .

و يفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد ، غير مضطرب لحرمان وفوات ، ينتظر فتحاً لحركة الإسلام تندكّ به صروح الضلال ، قد قدّم له التبائع على الموت ثمناً .

❖ فإن اختار الله لك المحنة سبيلاً لهذه المنحة ، وحزبك الأمر : لجأت إلى شجرة الترحاب ، تطلب الطمأنينة عندها ، هاراً جذعها ، لتغدق عليك من بركتها ، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الأرض ، فجاءها نداء: { و هزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً حنياً فكلي و اشربي و قري عينا } .

فتأكل رطيبات وتقنع بها ، عازفاً عن بطر المترفين ، وتغرف من ثمّ من سري بين يديك يجري ، مستعلياً بعزة دونك مدارجها ، ترقى إليها و تسري .

❖ و للنبي صلى الله عليه وسلم غراس في هذه الغابة ، كما أن الحكمة أشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفة ، إيماء إلى هذا الارتباط ، ربما ، و إثارة لتطلع الغافل .

منها : شجرة الوفاء ، عنوان امتزاج الأرواح الذاكرة ، تنطق بالشكر ، و تحفظ الفضل لأهله ، و تعلن عرفان الجميل .

وهي نخلة ، تنهدت عند الفراق .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

(كان جذع يقوم إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع

مثل أصوات العشار ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه) 92

أي كأصوات النياق التي أثقلها حمل بطنها وقرب مخاضها . وتلك من معجزاته ، عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام .

جذع أنيل الشرف ، فوفى ، واجتمع له الحنين ، فاستبدّ به استبداداً ، فرّق منه الأنين .

وما من أحد إلا وفي بيته ديوان حديث ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عنده

يُفقه أمر دينه ، و يُلقنه شرائع الإسلام ، و الوفاء يليق لمثلنا ، نتعلمه من الجذع ، و

نترجمه صوراً من الاتّباع و الاقتفاء .

91 إعلام الموقعين عن رب العالمين 1 / 188 - طبعة الوكيل .
92 صحيح البخاري 2/11 .

❖ و شجرة خامسة تسمى شجرة الثبات ، تلوذ بها يوم تتوزع الناس الأهواء ، فتطلب النجاة معتزلاً الفِرَق كلها ، (ولو أن تعضّ بأصل شجرة) ⁹³ وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن أبي مُليكة : " اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نُفتن " ⁹⁴ فلأمر ما مما نقول كان هذا الاعتصام بالشجر ، في إلحاح يزيد معه المعتصم شدّ نواجذه ضاغطاً ، لو تخيلته ، لتردّد قلبك يهتز في قلق ، بين رهبة من استرخاء يعتري فيجرف ، و أمل في إتمام يُنجي .

إلا أن رحيق هذه الشجرة يرويك إذ الناس تلهث عطشاً ، ويبل حلقك بارداً ، فتضاعف العضّ مُبالغاً ، كأنك تمص الثبات راضعاً .

❖ و سادسة تُعرف بشجرة الأنس ، تُصاحبك عند الوحشة ، و تخفف رطوبتها جفاف هفواتك . عَرَسها النبي صلى الله عليه وسلم لما مَرَّ بقبرين يُعذبان ، فكان أن : (أخذ جريدة رطبة ، فشققها بنصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، فقالوا : يارسول الله : لِمَ صنعت هذا ؟ فقال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا) ⁹⁵ ففهم بُريدة الأسلمي - رضي الله عنه - من ذلك أنها سُنّة ، فأوصى أن يُجعل في قبره جريدان ، فما زال الناس يُقلّدونه في ذلك .

وقد لا نخلوا من لَمَم يكدر صفو العمل ، أو من تَتَبَع بفضول لما في يد أهل الدنيا من أموال الاستدراج ، يكون معه الأرق المتلف ، واضطراب النوم ، فيضعف الاستعداد للفجر الآتي ، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهفك .

❖ ثم شجرة المفاصلة ، شهدت كيف يُتمم استقلال الوسيلة عند المسلم استقلال الهدف ، و ذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والأنصار حين سيره نحو بدر ، يريد أن يقاتل معهم ، حمية و نصرة لقومه ، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت معلماً في الطريق ، ذكرتها عائشة رضي الله عنها : لحق بهم ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : (ارجع ، فلن أستعين بمشرك) ⁹⁶ فمضى ذلك أصلاً ، لم يطرأ عليه الاستثناء إلا في حوادث ضيقة .

و تحاصر جبهات الأحزاب اليوم دعوة الحق ، تبتّ إرجافها ، متهمة إياها بتخلف عن ركب سياسي مجتمع ، فيقصد الدعاة الأشجار المعالم الضخام ، فتشهد بانتفاء اللقاء ، و عيب النزول بعد الاستعلاء .

❖ ولما فقه الناس هذه الأمثال : تتابعوا في سباق يغرسون ، فكانت شجرة ثامنة عرفت بينهم أنها شجرة الاغتفار .

⁹³ صحيح البخاري 9/65 .
⁹⁴ صحيح البخاري 9/58 .
⁹⁵ صحيح البخاري 2/14 .
⁹⁶ صحيح مسلم 5/201 .

وهي شجرة عنب كثيرة الثمر ، فكان غارسها إذا مرَّ به صديق له : اقتطف عنقوداً ودعاه ، فيأكله ، وينصرف شاكراً .

فلما كان اليوم العاشر : قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها : ما هذا من أدب الضيافة ، ولكن أرى إن دعوت أخاك ، فأكل النصف ، مددت يدك معه مشاركاً ، إيناساً له ، و تبسطاً و إكراماً .

فقال : لأفعلن ذلك غذاً .

فلما كان الغد ، و انتصف الضيف في أكله : مدَّ الرجل يده و تناول حَبَّةً ، فوجدها حامضة لا تساغ ، وتغلها ، و قطَّب حاجبية ، و أبدى عَجَبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها .

قال أبو حيان التوحيدي : فقال الضيف : قد أكلت من يدك ، من قَبْلُ على مر الأيام خُلواً كثيراً ، و لم أحب أن أريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف⁹⁷ . و ما هذه من قصص الأغاليط ، ولكنه مَثَلٌ ضرب لك أيها الأخ الداعية فاستمع له ، ومجاز تدلف منه إلى العدل مفتوح أمامك .

فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة و استقام له الصواب ، فإن أخطأ معك أخ لك فلا تجرمنك كبوته على الهجران ، و التأفف ، و الضجر و الانتقاص منه ، بل ولا على العتاب ، إنما تتصبر ، و تكظم و تعفو في سرك مستحضراً جمال سابقاته ، و جياذ أفعاله ، و حلو مكرماته ، إذ لعله قد أعانك على توبة أو ظاهره عند تعلمك رديفاً و رفيقاً و سميراً ، أو علّمك باباً مما علّمه الله و طريفة .

❖ فإن استغدت و نشرت الانصاف ، فقد أذن لك في أن تستلقي تحت شجرة هيفاء ، كثيرة الثمار و الورود ، يخلب نظر الرائي جمالها ، و تُنطق المستمتع حمداً لرفيع ذوق غارسها .

اسمها : شجرة الزهد .

وهي شجرة قلبية فريدة ، و لم يسبق صاحبها أحد إلى استنبات مثلها ، فجاءت بدعة ، و وصفها فقال :

عَرَسَ الزهْدُ بقلبي شجره **** بعد أن نَقَى بجهدٍ حَجَرَه

وسَقَاها إثرَ ما أودَعها **** كَيْدَ الأرضِ بدمعٍ فَجَّرَه

ومتى أبصرَ طيراً مُفسِداً **** حائماً حولِ حِمَاها رَجَرَه

نمتُ في ظلِّ ظليلٍ تحْتَهَا **** رَوْحُ القلبِ و نَحْيُ ضَجَرَه

تم بايعت إلهي وكذا **** بيعة الرضوان تحت الشجرة

فانظروا أطوار رعايته لها ، وعنايته بها ، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من أحجار الحسد و الرياء و التكبر و سوء الظن ، و كيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الأخيرة ، وكيف زجر شياطين الإنس و الجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها ، وقلّده ، و أفعل فعله : تورق لك أختها ، و تتفتح لك منها الزهور بألوان و عطور ، فتنام تحتها كما نام ، تستشعر شعور أهل بيعة الرضوان ، و كأنك فيهم و معهم ، تغمرك نشوة البيعة على الموت في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام .

❖ و وعى الإمام حسن البنا - رحمه الله - فن زراعة أشجار الإيمان ، فغرس لك الشجرة العاشرة ، وهي شجرة الحِلْم ، و صفها مخاطباً الدعاة فقال : " كونوا كالشجر، يرميه الناس بالحجر ، و يرميهم بالثمر " . ولقد أجاد وأفاد ، فإن في أكثر الناس سرعة جنوح إلى الجهل ، يميلهم إلى تكذيب دعاة الإسلام و إيدائهم بالباطل . ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين ، وقابل الإساءة بإساءة ، لعفت رسوم الإحسان واندثرت ، و لكنه الصدر الواسع ، والاحتساب ، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون .
أما بعد :

فليس الإمام البنا بأخر غارس في غابة الإيمان ، و إنما وضعنا في يدك الفأس ، و أعطيناك البذر ، فأبذر : تجد الثمر و فيراً ، مباركاً .
فاخرج و تجوّل متأملاً : تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة ، و إن لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها ، و يقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها .
ومن ها هنا كانت سويغات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافلين ، و سبيل إنابة .
و مما ينبيك عن صدق ظننا الحَسَن هذا بالأشجار أن الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة ، لكنها ليست قائمة ، بل اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار .
فليس من شجر واقف إلا و يعظك بكلمة من الإيمان .

7- حصار الأمل

هذه الحياة ، بجوانبها العديدة ، و تبدلات المجتمعات التي تحياها ، قد لا يفهمها جيل المسلمين اليوم من دون الرجوع إلى نظرة واقعية لها ، متسمة بالبساطة ، مستقرئة للمحسوس المشاهد منها .

ولا ريب في أن تجاوز مجرد الاستقراء ، وفهم الأمور معلّلة مسببة ، هو الوضع الأمثل ، المؤدي إلى الإيمان الأتم الأوفر ، وهو لما يُظن أنه من ظواهر التناقض أوجب ، و لذلك جاءت عقيدة الإسلام تُحلل وتُعلل ، ليحيا مَن حيَّ عن بينة . ولذلك أيضاً حاولت

الفلسفات أن تفهم محركات الحياة ، فقاربت كاقتراب سقراط من عقيدة التوحيد ، أو أبعدت ، كبعد جمهور المحاولين .

و بتفسيرات مَن شَرَحَ الكمال العقيدي الإسلامي ، أو من خلال محاورات الفلاسفة في محاولاتهم الوصول إلى المثالية اتسع القول في القدر ، والجبر والاختيار ، وسر تردد النفس بين التقوى و الفجور ، و حكمة خلق الشيطان و القائه للنفوس حتى لتختار الضرر الواضح و تأتي بما لا يأتلف مع الفطرة ، و غَلَبَة أهل الشر أحياناً مع كثرة إفسادهم وإرهاقهم للناس ، وكثرة محن أهل الخير وصدود الناس عنهم مع عظيم بذلهم ونفعهم للناس ، و أمثال هذا . و لكن حياة اليوم اكتنفها التعقيد المادي من كل أركانها ، وتركت كثيراً من المسلمين - كشأن أغلب الناس - في زحمة من المتطلبات والحوائج تسلبهم التفرغ لتأمل ساكن يحللون فيه و يعللون .

و لذلك لم يعد هذا النظر التحليلي بممكن للجميع ، فضلاً عن أن يكون مفهوماً للجميع ، مع أن المسلم مطالب و مكلف - في الوقت نفسه - بأداء الواجب المفروض عليه في التأثير الخَيْر في الحياة ، بالأمر بالمعروف ، و الدعوة إليه ، والنهي عن المنكر ، ملزم به إلزاماً ، مُضَيِّق عليه في الاعتذار إزاءه .

ومن هنا تفرض سرعة صراعنا الحاضر مع أشكال الكفر الجديدة أن نلجأ ، بسرعة توازيها ، إلى بساطة النظرات الواقعية ، لإسعاف المسلم القائم على ثغور هذا الصراع بقناعة و شجاعة تدعاه يلج دروب البذل التي تفرضها واجبات رقابته على العالمين ، أمماً و أفراداً ، وأمره ونهيه ، مقوماً لهم ومُعَدلاً .

ولن تجد الحركة الإسلامية ثنية بعيدة عن البدعة تطل بدعاتها من فوقها على منظر بسيط لحقيقة الحياة ، شامل في رؤيته ، كما تكون إطلالتها على حقيقة الموت . هذه الحقيقة المستغنية عن الدليل والتحليل ، والتي تؤذن فيهم وفي الناس كل صباح ومساء .

• عظمة المشهود : دليل الغيب

و ذاك من كمال عقيدة الإسلام وتمام فن المؤمنين بها في الدعوة إليها ، أنها و أنهم في حرص على أن يسلك المتحير أو المتردد الطريق الأدنى إلى الإيمان .

والمثل في ذلك كمثّل الذي استغلقت عليه الغيوب التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام ، من البعث والحساب ، والجنان والنيران ، فتمر به على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تربه إعجاز ما بين صدعه بالتوحيد فريداً مكذباً ، وبين صدع المؤذنين بالتكبير قبل نهاية سيرة الراشدين من خلفائه على كل روابي أرضين المدنيات ، فتجعل رؤية إعجاز السيرة باب تصديق يدلف منه إلى ما يكاد أن يكون رؤية لذلك الغيب

، و تكون قد جعلت الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم سبباً للإيمان بالله ، ولا نعلم فقيهاً يمنع ذلك ، غير الباقلاني ، فإنه يوجب الإيمان بالله تعالى قبل الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس لمنعه وجه ظاهر .

هذا بَلَّةٌ عن امتلاء القرآن بנדاءات بسيطة و دعوة إلى تفكّر في خلق السماء و الأرض يقود إلى الإيمان بالله .

وكل ذلك من وجوه كمال عقيدة الإسلام ، بما تَوَعَّت خطابها لأنصاف العقول و مقادير النباهة ، فمن أشكل عليه التعليل : أدخَلْتُهُ من باب ما يمكن حِسّه ، وعَوَّضْتُ عن التعليل بتكرار التذكير .

و الواقعية التي نريد أن نستفيد منها اليوم ليست إلا التي وفرتها عقيدتنا منذ أبعد الأمس ، حين أطنبت في التذكير بالموت ، و أُنذِرُ كتابُها سكرةً لا بد أن تميد لها كل نفس مهما كانت عنها تحيد .

و لهذا وجب على خطة الحركة الإسلامية التربوية أن تعتمد التذكير بالموت ضمن أسسها ، و تأخذ بيد كل داعية ليلمس لمساً قريباً حقيقته وتفاهة الحياة ، فينطلق من بعد انطلاقة في البذل ، و يتخلص من ثِقَلَةِ إلى الأرض تحاول الأموال أن تُركس كل متزين بها إليها .

• لوحة من الفن الإسلامي :

و لئن جمع قادة الحروب جنودهم قبل كل معركة ، و حَلَّقُوا بهم حلقة ، ليرسموا لهم على الأرض خطة تعبئة لحصار عدوهم ، فإن على قادة الحركة الإسلامية أن يرسموا قبل ذلك لحلقات الدعاة إلى الله خطة حصار الأجل للأمان الكواذب ، يذكرونهم إياه ، كما رسمه النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم لأصحابه على أرض المدينة ، ففتحت لهم - لما وعوا خطوطه - المدن .

و كان فيهم يومها : عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوصف فقال : (خط النبي صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً ، وخط خطأً في الوسط خارجاً منه ، و خط خطأً صفاراً إلى هذا الذي في الوسط ، من جانبه الذي في الوسط ، وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به - أو : قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج : أمله ، وهذه الخطط الصفار : الأعراض ، فإن أخطأه هذا : نهشه هذا ، و إن أخطأه هذا : نهشه هذا)⁹⁸

وكان فيهم أيضاً : أنس بن مالك رضي الله عنه ، فوصف ، فقال : (خطَّ النبي صلى الله عليه وسلم خطوطاً ، فقال : هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب)⁹⁹

وفي رواية : مثل ابن آدم جنبه تسع و تسعون مَنِيَّة ، إن أخطأته : وقع في الهَرَم .
و اكتملت بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن الرمزي التجريدي فريدة .
إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غزواً فيه إلحاح . عدوى ، أو سرطان ، أو حريق ،
أو غرق ، أو زلق ، أو سقوط ، أو اصطدام ، أو لدغة ، أو تسمم بطعام ، أو طلقة تائهة .
فإذا نجا من كل ذلك : كان له في الهرم ، و ضغط الدم وارتفاع نسبة السكر : تأديب
أي تأديب .

فإن أطال النَّفَس : اقتص منه الموت { قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم }
تعددت الأسباب والموت واحد ، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهم الإفلات حصاراً شديداً

أمل أبيض وضّاء ، كلما برق : زهت في نظر صاحبه الأموال ، و الحِسان ، و العطور ، و
القصور ، و المناصب ، و الشهادات ، فينسى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات
دعوته ، و يصد عينه عن أرض مقدسة يفسد فيها يهود ، ولا يعود أنفه يشم رائحة
شواء دعاة الإسلام في الصومال ، ولا نتن جثث الأتراك تحت حائط في قرية قبرصية ،
وتتناسى أذنه وقع أحذية عساكر الهنادك في البنغال !!

لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضاء إنما يلفه محيط أسود حالك ، يتيه فيما
دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجاً تدل عليه التقوى .
فهو تَرَقَّب جميل ، لكنه يتنغص .

وظل ظليل .. لكنه يتقلص .

ومطامع وراء الأودية والمفاوز ، وليس هو لما قُدر له بمجاوز .

و أنفاس قبل كل ذلك .. تُعَدُّ .

ورحالة .. تُشَدُّ .

وعاريتيه .. تُرَدُّ .

و التراب من بَعْد .. ينتظر الخد

فإنه ليس عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي .

وعلى أثر من سَلَفَ .. يمشي من خَلَفَ .

و ما ثمَّ إلا أمل مكذوب و أجل مكتوب .

• رؤية تمتد

و " إن هذا النظر ، الذي وراءه التذكر ، الذي وراءه التقوى ، التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفّيها أربع مرات ، حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر ، و آخر وجودها التلاشي " ¹⁰⁰

و " إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعدّاً لها ، فإن كان مُعدّاً لها : عاش راضياً بها ، فإن عاش راضياً بها : كان عمره في حاضر مستمر ، كأنه في ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه مادام ينقاد معه و ينسجم فيه ، غير محاول في الليل أن يبعد الصباح ، ولا في الصباح أن يبعد الليل " ¹⁰¹

و بمثل هذا النظر و الترقب الذي أكسبه الأنبياء عليهم السلام من قاتل معهم من الرّبّيين : صفت النفوس ، و ثبتت بركيزة من الطمأنينة سكنت معها و هدأت ، فرأت حين زال الاضطراب إطار الحقائق الترابية للشهوات الدنيوية ، فزال ما هنالك من تطلع زائد . ثبات له من الرسوخ إزاء الأمانى مثل الذي كان ما بين رؤية إبراهيم عليه السلام للأفول ، فلم يحب الآفلين ، وبين بقية من حنيفيته – كادت أن تتصل ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – أرّت أمية بن أبي الصلت حقائق الحياة ، فكاد أن يسلم ، فصرخ فيما حوله من جاهلية :

اقترب الوعدُ ، والقلوب إلى اللهو **** و حب الحياة سائقها

ما رغبة النفس في البقاء وأن **** تحيا قليلاً والموت لاحقها ؟

أمامها قائد إليه ، ويحدوها **** حثيثاً إليه سائقها

قد أيقنت أنها تصير كما **** كان يراها بالأمس خالقها

و إن ما جمعت وأعجبها **** من عيشة مرة مفارقها

من لم يمت عبطة يمت هَرَمًا **** للموت كأسٌ والمرء ذائقها

فكانت صرخاته في عكاظ إرهاباً ينبي عن نبوة جديدة ، أحييت لما جاءت سنن الترقب و النظر الذاكر ، فزهّد أصحاب ورثوها بما هنالك ، فانقلبوا يصلحون للإنسان الواهم ما أفسدته شهواته ، وما متاع أحدهم عند الوداع غير بُردة قصيرة جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي ، و يعاف الطعام ، ويقول :

(قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني : كُفن في بُردة ، إن غُطي رأسه : بدت رجلاه ، وإن غُطي رجلاه : بدا رأسه ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما يُبسط ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا) ¹⁰²

• نسيان الموت أول الانحراف

¹⁰⁰ وحي القلم للرافعي 2/198 ، 1/ 75 مع جمل سيقتهما للزمخشري و ابن الجوزي .

¹⁰¹ نفس المصدر السابق .

¹⁰² صحيح البخاري 5/121 .

و ليس ذاك بكاء الأسى ، حَزناً أن لم يَر أخاه مصعباً مترفاً ، إنما هو بكاء الخشية من بعض مباح أن يكون حسنةً معجّلة تمنعه الآجل ، كما أفصح ، ودموع حذر تخرجها روعة تجرد لجهاد يرى ذهاب أبطاله تباعاً ، فيخلف من بعدهم خلف تكثر في يده الأموال ، و يخاف أن يتنافسوها ، فيتوقف نبض فتوح الهداية .

يشبه بكأؤه ذاك عبرة ظلّ يغص بها خلق أبي الدرداء مراراً وهو يقول : (أبكاني فراق الأحبة : محمد وحزبه) ¹⁰³ ، يُعبر بها عن وجهه من جديد طراً على سمت الجيل الثاني ، مثلما يريد بها إظهار ألمه لفراق أخوة كانوا له سبب هداية وتثبيت ، وفهمهم وفهموه ، في تعامل مسترسل ، ما التالي لهم - مهما حرص - بقادر على أن يُسلي عن قلب أبي الدرداء رضي الله عنه تسليتهم عنه . وكأنهم حالة ما زالت تستبد بكثير من الدعاة الغرباء ، لا يستطيعون لها وصفاً .

لكنه حزن المجاهد الفقيه ، ما كان ليهبط بأبي الدرداء إلى حشرات تستهلك الهمة ، بل أدى به إلى صعود سُلّم

التربية ، فاعتلى درج مسجد دمشق ، فقال : (يا أهل دمشق : ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ، وبينون شديداً ، ويأملون بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً) ¹⁰⁴ و لبث في أهل دمشق سنين يخفف أثر هجمة المال ، ثم أورث المقال أهله ، فكان الرجل منهم يأتي أم الدرداء يستنصحبها فيقول :

(إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواء . أجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً !) فتقول : اطلع القبور واشهد الموتى ¹⁰⁵

• إحياء الأمة بذكر الموت

وقارب الاستدراك في زمن الراشد الخامس أن يتم ، لولا السم .
فقد واصلَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الطريقة ، فأرجف بذكر الموت قلوب جيله رهبة ، فنغضت رانها ثم انثنى ، فحرك إلى الشهادة حنانها .

و ما أكثر ما وقف عمر موقف أبي الدرداء على درج مسجد دمشق ، ليجدد الوعظ القديم ، ويقرر لهم :

" إن الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، و باع قليلاً بكثير ، و نافذاً بباقي " .

¹⁰³ الزهد لابن المبارك / 84 .

¹⁰⁴ الزهد لابن المبارك / 291 .

¹⁰⁵ عيون الأخبار لابن قتيبة 2/371 .

حتى إذا أيقنوا صواب الصفقة : راح يريهم من يومياتهم وواقعهم ، بعين التأمل ، مالا تراه عين الغفلة ، ويقول لهم : " ألا ترون في أسلوب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، وكذلك حتى تُردّوا إلى خير الوارثين ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غادياً إلى الله ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، وطوي عمله ، ثم تضعونه في صُدع من الأرض في بطن لحد ، ثم تدعونه غير مؤسّد ولا ممهّد ، قد خلع الأسلاب ، وفارق الأحباب ووُجّه للسحاب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدّم " . ولربما أجلس أحدهم أمامه وعلّمه ، تعليمه عنبسة بن سعيد : " يا عنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإنك لا تكون في ضيقة من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك . ولا تكون في سرور من أمرك وغبطة فتذكر الموت إلا ضيق ذلك عليك " ¹⁰⁶

حتى إذا ربّى حاشيته ، وخلصوا من وهم الأمل نجياً : راح ينشر مذهبه في الأمصار ، فيرسل على أعيانهم ، فيأتونه ، فيغشي لهم سرّ القبر ، وما هو عند أولي الأبواب يسرّ .

قال التابعي محمد بن كعب القرظي رحمه الله :

(لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعث إليّ وأنا بالمدينة فقدمت عليه ، فلما دخلت جعلت أنظر إليه نظراً لا أصرف بصري عنه ، متعجباً ، فقال : يا ابن كعب : إنك لتنظر إليّ نظراً ما كنت تنظره !

قلت : متعجباً

قال : ما أعجبك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين : أعجبنى ما حال من لونك ، و نَحَلَ من جسمك و نفي من شَعرك .

فقال : كيف لو رأيته بعد ثلاثة ، وقد دلّيت في حفرتي ، وسالت حدقتي على وجنتي ، و سال منخري صديداً و دوداً ؟) ¹⁰⁷

فشاع خبره في الآفاق ، حتى إذا أرسل إلى أعيان الكوفة : بادروه مبادرة ، و جلبوا شاعرهم أعمش همدان معهم ، يعلن له قناعتهم و براءتهم من أمل يطاره عمر ، قد عرفوا جده في إجلائه عن دار الإسلام .

و ينطلق الأعمش بين يدي عمر :

و بينما المرء أمسى ناعماً جذلاً **** في أهله معجباً بالعيش ذا أنقى

غراً ، أتيج له من حينه عَرَضِ **** فَمَا تَلَبَّتْ حتى مات كالصَّعِقِ

ثُمَّتَ أضحي ضحي من غِبِّ ثالثة **** مُقَنِّعاً غير ذي روحٍ ولا رَمَقِ

¹⁰⁶ طبقات ابن سعد 5 / 372
¹⁰⁷ الزاهد للإمام أحمد / 295 .

يُبكي عليه وَاَدْنُوهُ لِمُظْلِمَةٍ **** تُعَلَى جَوَانِبِهَا بِالتُّرْبِ وَ الْفَلَقِ
فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ **** إِلَّا حَنُوطاً وَ مَا وَارَاهُ مِنْ خِرَقٍ
وَ غَيْرِ نَفْحَةٍ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ **** وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِقِ
فَتَنْهَمِرُ هَاطِلَةً دُمُوعُ عَمْرٍ ، وَتَخْتَلِطُ بِأَصْوَاتِ نَشْغَاتِهِ ، لِيَتَجَاوَزَ تَرَادُّ صَدَاهَا دَهَوْرًا
تَتَعَاقَبُ ، يَقُودُ الْمُرَبِّينَ الْمُسْلِمِينَ .

• عودة إلى الرشـد :

ولئن توالى اليوم فراق الأحبة ووداع الرعيل الأول المتجرد المتواضع المؤسس
للحركة الإسلامية المعاصرة ، لنبكيه مع هجمة المال بكاء أبي الدرداء ، أو بكاء سلمان
الفارسي ، وفي رواية أخرى حذراً وغربة ، حين افتقدا ، رضي الله عنهما ، حزب محمد
صلى الله عليه وسلم ، فإن بكائنا لا يحق له أن يهبط بنا إلى تأوهات تجاوزتها همتهم ،
ولا بد لنا - مع بداية مرحلة جديدة تُرْشِحُ دعوتنا لملء فراغ تركه فشل التطرفات
القومية و الشيوعية - من ارتقاء درجات الاستدراك التربوي ، هامسين لكل داعية
بمواظب عمر ، لتعود لنفسه فتوتها و إقدامها ، وتطلعها الأخرى ، فإنه قد طال
التجوال في البطالة ، و لربما حير ، وامتد الركون إلى الاغترار و كأنه قد غير .

وَكأن بالداغ قد يبكي **** عليه اقربوه
و كأن القوم قد قاموا **** فقالوا : أدركوه
سائلوه ، كلموه **** حرّكوه ، لقنوه
حرّفوه ، وجّهوه **** مدّدوه ، غمضوه
عجّلوه لرحيل **** عجّلوا لا تحبسوه
ارفعوه ، غسلوه **** كفّنوه ، حنّطوه
فإذا ما لُفَّ في الأكفان **** قالوا : فاحملوه
أخرجوه فوق أعواد **** المنايا شيّعوه
فإذا صلوا عليه **** قيل : هاتوا و اقبروه
فإذا ما استودعوه **** الأرض رهناً تركوه
خلفوه تحت رمسٍ **** أو قروه ، أثقلوه
أبعدوه ، أسحقوه **** أوحدوه ، افردوه
ودّعوه ، فارقوه **** اسلموه ، خلفوه
و انشأوا عنه و خلّوه **** كأن لم يعرفوه

8- تِلَانَا الْهَامِدَة

لئن رأينا أبا الدرداء رضي الله عنه بعد فراقه حزب محمد صلى الله عليه وسلم باكياً ، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكاً ، ليقول : (أضحكني : مؤمل الدنيا ، والموت يطلبه ، وغافل ، ليس بمغفول عنه ، و ضاحك بملء فيه ولا يدري أَرْضَى الله أم أسخطه) ¹⁰⁸ وإنما هو ضحك التعجب من صورة حياتية يشاهدها كل مراقب لحياة الناس ، يرى خلالها أنماطاً من الغفلة تحرف شدة طمع صاحبها بعض الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطف غيرهم من حولهم ، وما لهم أدنى ضمان لدفعه لو جاءهم كما يجيء أولئك .

فالناس في غَفَلَاتِهِمْ **** وَرَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهلة حين يحار في تفسير هذه الظاهرة ، لكنها سرعان ما تتحول إلى شفقة ورحمة تأبى إلا أن تصدم الغافل صدمة إيقاظ تخرجه عن سكونه .

رحمة حركت أبا الدرداء برفق فأتى إلى هذا الذي أضحكه فنقر بأصبعه على كتفه فالتفت ، فهمس في أذنه أن : (ويحك كيف بك لو قد حُفِرَ لك أَرْبَعُ أذْرَعٍ مِنَ الْأَرْضِ) ¹⁰⁹ وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق ، إن كان انخلع من غفلته أم سَدَرَ فيها ولكننا ندري أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية ، وأن ما ذرعه لم تزده الأيام سعة وطولاً ، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد ، يرويها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد .

• يوم الحصاد :

مشهدها الأول : يوم الحصاد : يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع . وليس في التشبيه مفارقة ، فإن حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد ، من بين موت شهادة ظاهر نفعه ، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار و ادكار . وذلك ما صورهُ الشاعر حين خاطبك فقال :

ما أنت إلا كزرع عند خُصْرَتِهِ **** بكل شيء من الآفات مقصودُ

فإن سَلِمْتَ من الآفات أجمعها **** فأنت عند كمال الأمر محصودُ

أو قد يسمى هذا اليوم :

¹⁰⁸ الزهد لابن المبارك 84/554
¹⁰⁹ الزهد لابن المبارك 84/554

يوم الصراح ، و ذاك حين يعرق الجبين ، و يتتابع الأنين ، وتكون الغرغرة ، وتبرد الأعضاء ، وتستبد السكرات ، فيفتضح الضعف ، فيعلو الصراح .

باكيات عليك يندبن شجوا **** خافقات القلوب و الأكباد
يتجاوبن بالزنين و يذرفن **** دموعاً تفيض فيض المزد

فيأتي من يحسنهن جانباً ، ليغسلوك على عجل .

عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء ، فينادي : ألا إن وراءنا أشغالنا فاستعجلوا !!

كما هو الخلق القديم في الغاسلين ، منذ عصر من قال :

كأن لم أكن إذ احتث غاسلي **** و أحكم درجي في ثياب بياض

و ما هي إلا أذرع أربعة من القماش الرخيص ، كتلك من الأرض السبخة ، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب

فلا تنس يوماً تسجى على **** سريرك فوق رقاب النفر

فإن كنت صالحاً : استبشرت تلك الساعة ، ولبثت تصيح طرباً قدّموني ، تصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال :

(إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت غير صالحة قالت لأهلها : يا ويلها ! أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق) ¹¹⁰

• ثم يوم الرقاد :

و تنتقل القصة إلى مشهد ثان يسمى : يوم الرقاد الطويل ، يبدأ بملكين يفتنان الميت ، ذكر خبرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (أوحى إليّ أنكم تُفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال . فأما المؤمن أو المسلم فيقول : محمد جاءنا بالبينات ، فأجبنا وآمنا .

فيقال : نَم صالحاً ، علمنا أنك موقن .

وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته) ¹¹¹ و ذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر ، أن : (العبد إذا وضع في قبره و تولّى و ذهب أصحابه ، حتى أنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فأقعدها .

فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟

فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .

فيقال : أنظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة .

¹¹⁰ صحيح البخاري 2/103 ، 9/116 .
¹¹¹ صحيح البخاري 2/103 ، 9/116 .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً .

و أما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس .

فيقال : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ .

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنية ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين¹¹²

فيستيقظ الدود لتلك الصيحة ، ويهجم هجومه فيستسلم الرجل ويذعن ويأخذ يقول كأنه يستزيد :

ضعوا خدي على لحدي ضعوه **** و مِن عَفَرِ التراب فوسِّدوه
وشقُّوا عنه أكفاناً رقاقاً **** وفي الرَّمْسِ البعيد فغيِّبوه
فلو أبصرتموه إذا تقصت **** صبيحة ثالث : أنكرتموه
وقد مالت نواظرُ مقلتيه **** على وَجَنَاتِهِ ، فرفضتموه

فهناك يكون السكون ، حيث تصفر الرياح على تلال هامدة واطئة ، فيصل صغيرها إلى آذان أمهاتٍ تكالى يخرجن ببلاهة يقودهن الصغير إلى قبور أبنائهن ، لتسأل كل واحدة منهن ابنها :

بأي خديك تَبْدَى البلى **** و أي عينيك إذا سالا ؟

فيجيبهن صوت بعيد ، من حيث القبر الأخير المنزوي :

لم تبق غير جماجم عَرِيَتْ **** بيضٌ تلوح ، و أعظمُ نَحْرِهِ

و يثنى آخر :

لا يدفعون هَواماً عن وجوههم **** كأنهم خشب بالقاع منجَدِلٌ

أو يرد صوت ثالث :

هجوْدٌ ولا غير التراب حَشِيَّة **** لجنبٍ ، ولا غير القبور قِبَابٌ

أو يخبرهن رابع :

قد أصبحوا في برزخ **** و محلة متراخية

ما بينهم متفاوت **** و قبورهم متدانية

فمحلاها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل موحشين ، وذوي محلة متشاسعين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الإخوان . قد اقتربوا في المنازل ، وتشاغلوا عن التواصل حتى طحنهم بكلِّلهِ البلى ، وأكلهم الثرى¹¹³ .

وبينما هم كذلك إذ جاءهم من ليس هو بفضولي ، وعساه عند عمر بن عبد العزيز أو عنبسه أو القرظي يتدرب ، فيسألهم :

¹¹² صحيح البخاري 2/108 .
¹¹³ أسطر لبعض الزهاد .

أين الوجوه التي كانت محجّبة **** من دونها تُضربُ الأستار و الكلّل
و يميل بأذنه يريد جواباً منهم ما هم بقادرين عليه ، فتنبو عنهم التلة الصغيرة
تجيب ..

و أفصح القبر عنهم حين ساء لهم **** تلك الوجوه عليها الدود تقتل
قد طالَ ما أكلوا دهرًا و ما نعيموا **** فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا
فيتولى عنهم بجناح من الرهبة ، خفيض ، و دمع على الخدين يفيض ، يودع ويندب و
يقول :

أهل القبور أحبّتي **** بعد الجذالة و السرور
بعد الغضارة و النضارة **** و التنعّم و الحُبور
بعد الحسان المؤمنات **** و بعد ربّات الخدور
أصبحتم تحت الثرى **** بين الصفائح و الصخور

• حساب و كتاب :

فيظلون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى : يوم البعث
يوم إنشقاق الأرض عن أهل البلى **** فيها ، و يبدو السخط والرضوان
يوم القيامة ، يوم يُظلم ظلم **** الظالمين و يشرق الإحسان
{ أن تقولَ نفسٌ : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله } و تنادي أخرى : { هل
إلى مرٍّ من سبيل }
و تستغيث أخرى : { ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل } .
فهناك ثالثة يكون الوجمل :

هناك إن كنتَ قدّمت مُدخرا **** تُسقى من الحوض ماءً غير ذي أسنٍ
وتُنشر الصحفُ فيها كل مُحْتَقِبٍ **** من المخازي وما قدّمت من حَسَنٍ
قد كنتَ تنسى وتلك الصحفُ محصية **** ما كنت تأتي ، ولم تظلم و لم تَحْنِ
فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا عبرة ، تَستخرج من عينه و قلبه
عبرة ، تنطق لسانه رهبة وأسفاً ، ليدندن في الليالي :

واحسرتي ، واشقوتي **** من يوم نشر كتابيه
وأطولَ حُزني إن أكن **** أوتيته بشماليه
وإذا سُئلت عن الخطأ **** ماذا يكون جوابيه ؟
و احَرَّ قلبي أن يكونَ **** مع القلوب القاسية
كلا ولا قدّمت لي **** عملاً ليوم حسابيه
بل إنني لشقاوتي **** وقساوتي و عذابي

بارزت بالزلات في **** أيام دهرٍ خاليه
من ليس يخفى عنه من *** فُبِح المعاصي خافية

• ما بعد هذا إلا التشمير

فأما صاحب القلب الحي فنقص له قصة الأيام الثلاثة هذه . وأما أموات القلوب
فذرهم في ركستهم يتخبطون .

{ ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلهمهم الأمل فسوف يعلمون { تَمَتَّعَ أَكَلَةَ الْخَضِرَةِ التي حدثنا
عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَكَلَةَ الْخَضِرَةِ أَكَلْتُ .

حتى إذا امتدت خاصرتها : استقبلت الشمس .

فاجترت وثلطت ، وبالت .

ثم عادت فأكلت)

هكذا كالخرفان تماماً ، يأكلون و ينامون ، فيتغوطون ، فيعودون إلى الأكل ، ولا شيء
آخر .

تعست حياتهم !!

فتدبر أمرك أيها المسلم و تأمل .

وقف ولا تعجل .

فإنك لمتحن ، و بكسبك مرتهن .

و إنه :

سيأتيك يوم لست فيه بمكرم **** بأكثر من حثو التراب عليك

بل يرى أصحابك ذلك غاية الإكرم لك .

يقولون : كان رحمه الله صديقاً لنا ، ولا بد أن نكرمه ، وواجب أن نحضر لنحتوا التراب
عليه .

وكم قد رأينا فتى ماجداً **** تفرّع في أسرة ماجده

رماه الزمان بسهم الردي **** فأصبح في التلة الهامدة

فاذكر و اتعظ و لا تنشغل بالأمل عن ذكر قصة الحصار والحصاد والأجل عَسَيْتَ
بفضل الله تنجو ، و تغوز ببعض ما المؤمن يرجو ...

9- مدارس الموت

خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوطه ، فاستيأس الأمل ، فبات الأصحاب
يحبون أحب الأمرين إلى الله : حياتهم أو الموت .

إلا الفاروق عمر رضي الله عنه ، فإنه جمع بين هجر الأمل ، والجزع من الموت و كراهته ، فاتحاً بجمعه هذين النقيضين باباً يلج الموفق منه إلى زيادة في فقه الدعوة . وذاك حين طعنت المجوسية أبا حفص طعنتها ، فتغيب جرحه دماً كثيراً أخرجه إلى جَزَعٍ وافقَ دخولَ عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما ، عليه ، فَفَعَرَ فاه مستغرباً ، فقال عمر : " أما ما ترى من جزعي ، فهو من أجلك وأجل أصحابك " ¹¹⁴ .

و بهذه الحروف اختتم رضي الله عنه سيرة أتعبت كل دعاة الإسلام من بعده .
فالحياة يطلبها الغيور طلباً ، ويجزع لورود الموت جزعاً ، لما سيحول بينه وبين خدمة المسلمين والقيام بأمور دعوة الإسلام .

وغدا هذا المفهوم ، بهذا المقدار ، يمثل الوجه الآخر للتربية الحركية الكابحة لانطلاق الآمال الدنيوية ، يمارس الداعية خلال نظره المتكرر إليها إيجابية تبعده عن يأس سلبي وتزهيد بالعمل يسببه نظر ناقص إلى مجرد كبت الآمال .

• مدرسة الكوفة تواصل الذكرى

ولئن كشفت هذه الكلمات في نهاية خلافة عمر - من جانب - للغافلين سر ما رآه المسلمون منه من تعب و سهر و تفكير ، فتأهبوا للاقتداء ، فألهاهم عبدالله بن سبأ زمن عثمان رضي الله عنه ، وأذهلهم ، فإن تشميراً رآه الناس في بداية خلافة علي رضي الله عنه ، كان بحاجة - من جانب آخر - بعد ذاك الذهول ، إلى كلمات أخرى تعظمهم ، و تعيب عليهم أملاً وجد له أثناء سنوات الفتنة مجال نمو ، بردت معه همم المقتدين .

و من هذه الحاجة نشأت مدرسة الكوفة في التذكير بالموت ، إذ طفق علي رضي الله عنه يجمع الناس في مسجد عاصمته ، ويصارحهم و يقول : " إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، و اتباع الهوى ، فإن طول الأمل يُنسي الآخرة ، و إن اتباع الهوى يصد عن الحق " ¹¹⁵ . و تنتدب جمهرة من فقهاء أصحابه نفسها لمعاونته ، فيقوم الصحابي الأغلب بن جشم العجلي بعده ، فينشد بين يديه قصيدته التي مطلعها :

المرء تواقٌ إلى ما لم ينل **** و الموت يتلو ، ويلهيه الأمل

فيتلوه سيد زهاد التابعين : أُويس بن عامر القرني ، فيقول : " يا أهل الكوفة : توسّدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم " .

حتى إذا قُتل علي بعدما خشعت القلوب وادكرت استمرت ثلة من أصحابه على سمته في الوعظ ، فكان الربيع بن خثيم يقول لهم :

¹¹⁴ صحيح البخاري 5/16 .
¹¹⁵ الزهد لابن المبارك / 86 .

" أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله " ¹¹⁶ . ويحفر له قبراً ، ويأخذ ينزل فيه كل يوم يتمدد ، ثم يقوم يذكر لهم مشاعره لما يكون بقعره .

ويذكر سعيد بن جبير لهم مقدار تصفية كلمات علي لقلبه ، فيقول : " لو فارق ذكر الموت قلبي : خشيت أن يفسد عليّ قلبي " ¹¹⁷

وكل هؤلاء : سعيد ، والربيع ، وأويس ، رحمهم الله ، والأغلب رضي الله عنه ، من ثقات أهل الكوفة الذين رباهم علي رضي الله عنه ، فلما ماتوا : أورثوها لآخرين يحفظون للكوفة سميتها ، فكان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي يرتقي المنبر و يسألهم : " كم من مستقبل لا يستكملة ، ومنتظر غداً لا يبلغه . لو تنظرون إلى الأجل و مسيره ، لأبغضتم الأمل و غروره " ¹¹⁸

فإذا نزل : سعد عمر بن ذر ، فخطبهم :

" أما الموت فقد شَهَرَ لكم ، فأنتم تنظرون إليه في كل يوم وليلة ، من بين منقول عزيز على أهله ، كريم في عشيرته ، مطاع في قومه ، إلى حفرة يابسة وحجار صُم ، ليس يقدر له الأهلون على وساد إلا خالطه فيه الهوام ، فوساده يومئذ عمله . ومن بين مغموم غريب ، قد كثر في الدنيا همّه ، وطال فيها سعيه ، وتعب فيها بدنه ، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته ، فأخذه بغتة . ومن بين صبي مرصع ، ومريض موجع ، ورهن بالشر مَوْلَع ، وكلهم بسهم الموت يُقرع "

فلما مات هؤلاء النفر ، واجتمع علمهم وعلم شيوخهم عن علي في سفيان الثوري : تولاها طريقة ، واتخذ الموت نشيداً ، حتى قال أحد تلامذته : " ما جلست مع سفيان مجلساً إلا ذكر الموت ، وما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت منه " ¹¹⁹

وهكذا أعطت مشيئة الله تعالى لمدرسة الكوفة من بعد عمر بن الخطاب دورها في رقابة سواء سبيل أمة الإيمان ، وحفظه من الانحراف وطغيان الآمال ، وشرفها ، فتمثلت بها بقية نهى عن الفساد ، تكثر حيناً ، أو تقل من دون انقراض ، ليست دعوة الإسلام المعاصرة غير استرسال في كفالة القدر لوجودها ، وما وراثتنا لها إلا وراثته قربى في النسب واشتراك في المورد .

• فبرز لها بالشام عمر

وكان الذي رويناه من استدراك عمر بن عبدالعزيز في أواخر المائة الأولى حلقة ضمن دعوة البقية الرقبية على سير القرون ، اتصلت بمدرسة علي الكوفية عن طريق عون ابن عبد الله ، وعمر بن ذر ، وأعشى همدان الشاعر ، الآنف ذكرهم ، اتصالاً

¹¹⁶ طبقات ابن سعد 6 / 184 .
¹¹⁷ الزاهد لأحمد بن حنبل / 371 .
¹¹⁸ الزهد لابن المبارك 4 .
¹¹⁹ تاريخ بغداد 9/157 .

اعتيادياً كما هو شأن العلم في قلبه في البلاد ، و شأن البقية الناهية في قلبها عبر القرون ، لكنها حلقة استطاعت أن تستأثر بحيازة إعجازين قصرت عنهما الحلقات التي بعدها :

* إعجاز أكسبه إياها موضع الخلافة العالي ، فشخصت القدوة المهابة من بعد بعض انقطاع ، فتسارع الإصلاح ، فاختصر الزمان ، فكانت هنيهة قصيرة أثرت دهوراً طويلة .

* وإعجاز بلاغي آخر ، وليد تفكر وعمر ، وربيب نعمة من فصاحة عربية كانت ما تزال تنساب من فيه ، بها فضح عيب تمتع جيله بأسلاب الهالكين ، وبها راد لقرون تليه خبر موت أعمله حدسه أنها ستكون عنه من اللاهين ، فحدثها حديث صدق عن :

(قبور خرقت الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصّت الدم ، وأكلت اللحم . ترى : ما صنعت بهم الديدان ؟ مَحَتِ الألوان ، وعفرت الوجوه ، وكسرت الفقار ، وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء .

ترى : أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟
أليس هم في مدلهمة ظلماً ؟

كم من ناعم و ناعمة أصبحوا وجوههم بالية ، وأجسادهم عن أعناقهم نائية ، قد سالت الحدق على الوجنات ، وامتلات الأفواه دماً وصديداً ، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً ، حتى عادت العظام رميمًا . قد فارقوا الحقائق ، فصاروا بعد السعة إلى المضائق) .

ثم راح ينادي حتى صحل صوته : (ياساكن القبر غدا ، مالذي غرك من الدنيا ؟
أين دارك الفيحاء ؟
و أين رفاق ثيابك ؟

ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى ، وبأي خديك يبدأ البلى ؟)
وبمثل هذا : استأسر فقهاء الأمصار لعمر ، فجمع قلوبهم حوله ، و جعلهم له أعواناً في تعميم رشده ، و أخرجهم إلى مشاركة جماعية في تعليم الأمة و تربيتها ، متناسقة مع أسلوبه ، أغنت حكمه عن سيف وحساب ، و استثمر بها طاقات خير دفينة مغروسة في أصل فطرة الناس ، قدم لها منه القيادة ، فقدمت له منها المتابعة .

• مدرسة البصرة تؤيد :

ولئن أسرع عنبسة أو القرظي الاستجابة لعمر ، في أرهاط من الشاميين والمدنيين ، فإن الحسن البصري ، عبر عن سيادته الجيل الأوسط من التابعين طراً ، وبتأثير ما اقتبسه من علي ومدرسته الكوفية ، قد أنزل البصرة مكانة التقدم في التأثير التربوي في الأمة من قبل أن يحكم عمر ، مكنها من بعد أن تسبق الربوع الأخرى في إعادة

رسم خطوط حصار الأمل ، ورواية قصة الرقاد الطويل ، وتأکید مذهب عمر وترويجه ، حتى غدت مواعظ الحسن أداة تربوية ، تكتب في نسخ وتوزع مع بريد الخلافة كما توزع الصحف اليوم ، فيجد المسلم المرابط في أقصى الثغور في شدة نبراتها حماسة يهتز بها للشهادة قلبه ، تعادل رقة يرجف لها بدن المتعلم العاكف ، والساذج المزارع ، و التاجر الساعي .

وهكذا وافقت دمعات الرشد فهماً لدى إمام البصرة ، وبدأت الآمال تقصر بمآل إلى الردى يصوره الحسن و يحذرهما أهوالاً تستقبلها ليست سكرات الموت إلا بواكر حسابها وعَتَب أبوابها ، فراح ينادي :
(المبادرة ، المبادرة .

فإنما هي الأنفاس لو حسبت : انقطعت عنكم أعمالكم , إنكم أصبحتم في أجل منقوص ، والعمل محفوظ ، و الموت – والله – في رقابكم ، و النار بين أيديكم ، فتوقعوا قضاء الله عز و جل في كل يوم و ليلة .
لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً و إن أمراً هذا الموت آخره ، لتحقيق أن يُزهد في أوله .
وإن أمراً هذا الموت أوله ، لتحقيق أن يُخاف آخره)¹²⁰

• ميزان بصري في فقه الدعوة

وصاغ الحسن خلال ذلك ميزاناً إيمانياً يقدم له الواقع المرئي كفاية من دلائل الإقناع ، ربما نشق له اسم (ترجيح التخويف) ، ساقه في صورة خطاب ، فقال : " إنك والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً ، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف " ¹²¹

وهو ميزان يمثل بعضاً مما أضافه الحسن إلى فقه الدعوة . فالخوف العاجل عنده ، المؤدي إلى التقوى ، المؤدية إلى أمن أجل في ظلال الجنان : خير من مدّ عريض للنظر إلى صفات الله سبحانه في الرحمة واللفظ والغفران .

وكلاً من الحالتين تُراد ، والأمر في حقيقته معلق بنسبية واضحة ، ربما أوجبت تخفيف رهبة البعض بأبواب من الرجاء أغلقتها عليهم شدة الخشية ، ولكن هذا المعدن فريد ، والغرور يلف الجمهرة العظمى ، وما من دواء له إلا الإخافة بقصة التلال الهامدة .

و في التنبيه على هذه النسبية يقول ابن الجوزي :

¹²⁰ الزهد لأحمد بن حنبل / 285 و مصادر أخرى .
¹²¹ الزهد لابن المبارك / 102 .

" إذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير أعمالهم : أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت ، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه ، و تجري على لسانه ، فتذكّره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بالمرة .

بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى ، الكثير الذكر للآخرة ، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ، ليمتد نَفَسُ أمله قليل ، فيصنّف ، و يعمل أعمال خير " ¹²²

• مدرسة بغداد تجنح للبساطة

وقد أضافت المدرسة البغدادية من بعد تلك المدارس تطويراً مهماً إلى فقه الزهد وكبت الآمال .. يوم أدخلت عنصر البساطة في التذكير على لسان رائدها بشر بن الحارث الحافي لما أتاه آت وطلب منه الموعدة فقال له :

" إن في هذه الدار نملة تجمع الحبّ في الصيف ، فتأكله في الشتاء ، فلما كان يومٌ : أخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور فأخذها والحبّة ، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أملت نالت " ¹²³

هذه هي الحياة عند بشر : إنسان يجمع ، فيأتيه الموت ، فيأخذه وما جمع . هكذا ، بلا أبيات شعر ، ولا ألوان من الجناس والبديع نطلبها اليوم تشغلنا عن جوهر المواعظ .

لأولي الألباب كفاية بيوميّات العصفور والنمل .

ثم بلغت هذه البساطة البغدادية ذروتها لما تولى الإمام أحمد زمام التربية ، فذهب فيها لأبعد مما ذهب قرينه بشر ، فسكت ، حتى أن الكتب تكاد أن لا تورد له في المواعظ قولاً ، وعوّض تلامذته وأجيال الأمة عن ذلك بوجه معبرّ كأنه يطلع إلى القيامة ، وصبر على العذاب والإغراء ثبتت به الأمة إزاء دعاية المبتدعة ، وسيرة في التعفف و التقليل تستحي منها نوايا الإثراء .

فلما مات سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وانتقل شيخ البخاري الحسن بن عبدالعزيز الجروي من مصر إلى بغداد وسكنها ، وصار في عداد البغداديين : رأى ضرورة استمرار القدوة الصامّة ، فم يأخذ من إرث أبيه شيئاً ، لشبهة خالطته ، وقال : " من لم يردعه القرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع " ¹²⁴

¹²² صيد الخاطر / 158 طبعة الغزالي .

¹²³ تاريخ بغداد 3/321 .

¹²⁴ طبقات الحنابلة 1/135 .

قال صاحب تاريخ تنيس : " وكان أبوه ملكاً على تنيس ، ثم أخوه علي ، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئاً ، وكان يُقرن بقارون في اليسار " 125

• التربية بالاعتراف :

وظف المربون بعد أحمد والحسن الجروي يمارسون طريقتين في التربية : فمن حاز مرتبة أحمد وزهده و ورعه و حياة قلبه : قلّده في سكوته ، وترك حاله تخبر الأبصار . ومن لم يحز مثل سمو أحمد ، ولبت دون ذلك : سلك طريقة الاعتراف ، فيستغزّ الأسماع ، كما استغزها الخليفة العباسي الراضي بالله ، لما جمع ببغداد الغافلين ، وحاول من بعد المتوكل أن يتشبه بعلي وعمر بن عبدالعزيز و يقلد طريقتهما ، فراح ينشد لهم من نظمه :

كل صفو إلى كَدَر **** كل أمنٍ إلى حَذَر
ومصير الشباب للموت **** فيه أو الكَبر
أيها الأمل الذي **** تاه في لُجّة الغَرَر
أين من كان قبلنا **** دَرَسَ الشخصُ والأثر
سيردُ المعار من **** عمره كله خَطر
ربّ أني ذخرت عندك **** أرجوك مُدّخر
إنني مؤمن بما **** بين الوحي في السور
و اعترافي بترك نفعي **** وإيثاري الضرر
رب فاغفر لي الخطيئة **** يا خيرَ من غَفَرَ

أو كما استغزها بالأندلس آخر ، حين راح يعترف :

إلى كم أقول ولا أفعل **** و كم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوي **** وأنصح نفسي فلا تقبل
و كم ذا تعلل لي ، ويحها **** يعلّ وسوف وكم تمطل ؟
وكم ذا أوّمل طول البقا **** وأغفل والموت لا يغفل ؟
و في كل يوم يُنادي بنا **** منادي الرحيل : ألا فارحلوا
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي **** يُساق بنعشي ولا أمهل 126

• و بعد :

و بعد يا داعية الإسلام .. إِنَّ مِنْ جَدِّ وَجَد ، وليس من سَهَر كمن رقد . فلا تكن ممن
تضمّه الكتاب ، وقلبه عن المشاركة غائب . و هذا الموت منك قيد شبر الشابر .
و هذا دبيب يُسارق نفسك ساعتها .
و إن سِلَعَ المعالي غاليات الثمن ، و إنما ثمنها اتباع مدارس الكوفة والشام ، ومدرسة
إمام البصرة الحَسَن ، فانظر لنفسك .
و اغتنم وقتك .
(فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والحظر عظيم ،
والناقد بصير)¹²⁷
وفقنا الله و إياك .

10- لا يَأْ قِيُود الأرض

لئن كان الدعاة إلى الله قد فقهوا طريق الاستدراك ، ورفضوا الانصياع للفساد الذي
استشرى ، وتمردوا على عملية الترويض ، وبدأوا جهود تثبيت وتربية لأولي الفطرة
الصحيحة ، فإن غيرهم بات يتألم لواقع المسلمين و يتأوه ، ولا يعدو إبداء الحزن ، وقبع
في بيته أو مسجده ، يلفه اليأس ، تاركاً دعاة الإسلام وحدهم في المعركة ، يظن أنه
بحزنه قد أبرأ ذمته ، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقب .

وليس الأمر كما ظن وإن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر ، فإن المسلم الذي يبغي
درجات الكمال يحزن لواقع المسلمين ، لكنه يترك بيته وراءه ظهرياً ، و يتصدى للناس ،
واعظاً وناصحاً ومربياً ، وخائضاً بهم دروب الجهاد .

قال ابن تيمية رحمه الله : " قد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ،
فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين على مصيبة في دينه ،
وعلى مصائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب على ما في قلبه ، من حب الخير وبغض
الشر ، وتوابع ذلك ، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر
والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة ، نهى عنه ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه "

128

فافهم هذا يا من تتمنى أن يغير الله الأحوال بلا عمل منك ومن أمثالك .
وحولك من يعمل و يناديك ...

أيها المشدود في تيه الأمانى
خفف الآهات دع عنك التواني

¹²⁷ اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي / 16 .
¹²⁸ مجموع الفتاوى 10/17

لا تبالي إن بغت كف الزمان
واعتصم بالله ذا أسمى وأفضل
أنت تدري أيها الحيران عنا
كيف فوق الشمس أزماناً حَلَلنا
أيها المذهول لا تيأس فإنا
لبناء الأمة العصماء نعمل¹²⁹

فكن من العاملين أيها المبهور .

إنك إن كنت تعرف أنا خير من يعمل ، و أظهر من يتصدى ، فلم تهرب منا ؟
" إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل
- بل لا تخدشها - ، وهي لا بأس بها لكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة إذا لم يعقبها
عمل إيجابي مثمر ، إذ تكون وسيلة لامتناس النعمة على الأوضاع الفاسدة ، ومن ثم
الركون إليها ، وعلى أحسن الفروض : استمرار هذه النعمة ، ولكن بشكل جامد لا حياة
فيه يؤدي إلى شلل الحركة . وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع " ¹³⁰

وإنما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة ، وهو الطريق الذي وصفه قدوة
العراق آخر الزمان العباسي ، الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله ، فكان ينادي أهل
بغداد بصوته الهادر أن : " سيروا مع الهمم العالية " ¹³¹

لا تتواروا ولا تنسحبوا ، بل سيروا مع الهمم العالية .

ولا زال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد في خارطتنا .

أما الجبن ، والانزواء ، والتأوه ، فصحارى مهلكة .

وجرب غيرك الأعوان ، وأعطاك النتيجة ، فقال :

لي معينان : همة واعتزام .

لم يجد غيرهما . و خائنه بقية الأعوان .

وعونك المخلص ما أوصلك إلى اللذة الصادقة في الحياة . ومغشوش واهم ذاك الذي

يظن اللذة فحسب لذة القرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية .

و إنما السعادة في رضى الله .

و إنما اللذة لذة البذل والغداء .

و نداء الشيخ عبد القادر يأتينا عبر القرون :

¹²⁹ لمحمود آل جعفر في حنين إلى الفجر / 140 .

¹³⁰ الفتح الرباني / 297 .

¹³¹ الفتح الرباني / 298 .

" أنتم غفل عما القوم فيه ، تواصلون العناء في الكد على النفوس التي هي عدوتكم . ترضون أزواجكم بسخط ربكم عز وجل . كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عز وجل " .

وما بغير البذل ينطق قاموسنا ، " لكن يغلط الجفاة في مسمى الحياة ، حيث يظنونها التمتع في أنواع المآكل و المشارب و الملابس و المناكلج ، أو لذة الرياسة و المال و قهر الأعداء و التفتن بأنواع الشهوات ، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل وقد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان ؛ فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع و الدواب و الأنعام فذلك ممن ينادي عليه من مكان بعيد . ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن ، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً ، وعرض نفسه لأنواع المكارة والمشاق ، وهو متحل بهذا منشرج الصدر به ، يطيب له هجر ابنه و أبيه و صاحبه و أخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، حتى أن أحدهم ليتلقى الريح ب صدره و يقول : فزت و رب الكعبة . و يستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده و يقول : إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً " ¹³²

هذا ما نعرفه من شأن الداعية . لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل إلى مثل حال إبراهيم عليه السلام ، لما استسلم وأطاع ووضع السكين على خلق ابنه و بهذا وصفه اقبال ..

ليس يدنو الخوف منه أبداً **** ليس غير الله يخشى أحداً

لحنه في القلب ناراً اشتعلاً **** من قيود الزوج والولد خلا

معرض عما سوى الله الأحد **** يضع السكين في خلق الولد ¹³³

إن من واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الإسلامية وإرجاع الإسلام إلى الهيمنة من بعد الحدث الهائل في تنحيته هي واجبات واضحة بينة ، وأكثر من نراه من المسلمين المتحسرين أصحاب الأمانى المتأوهين " يكون عالماً بها ، ولا تنهض همته إليها ، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً ، و قلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً ، قد أسام نفسه مع الأنعام ، راعياً مع الهمل ، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رفع له علم فشمر إليه ، وبورك له في تفرده في طريق طلبه ، فلزمه و استقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه

¹³² مفتاح دار السعادة 1/35 .
¹³³ ديوان الأسرار و الرموز / 39 .

إلا الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله "

134

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقة .

و كذلك حقاً تفعل الأشواق حين تصدق . إ

ن صاحبها حينئذ يأبى إلا الهجرة والانضمام إلى القافلة .

ويذر كل رفيق يشبطه ويزين له إثارة السلامة ، إلا داعية يبثه همهم ، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد ، ويعلمه علم البذل و فقه الدعوة والتبشير .

فحيهلاً إن كنت ذا همة فقد **** حدا بك حادي الشوق فاطو المراحل

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد **** ودعه فإن العزم يكفيك حاملاً

فينتفض ، ويهجر كل قاعد ، ويهاجر مع المهاجرين إلى الله ويخطب به ابن تيمية فيقول ، ويصف له الطريق و اضحاً : " الحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب "

135

فيطرح أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حراً ، ويعود يأبى المنخفض الخبت ، ويرفض أن تواريه الوديان ، ويتغنى المرتفع العالي .

ومن أراد ذلك ارتقى سلم الارتفاع والسمو : الجهاد ، و فقه الدعوة .

قال تعالى : { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات } .

" وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع . أحدها : هذا . والثاني

قوله : { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم

إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم

المؤمنين حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم } . والثالث قوله تعالى : { ومن

يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى } . والرابع قوله تعالى : {

وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة } .

فهذه أربعة مواضع ، في ثلاثة منها : الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم

النافع و العمل الصالح . و الرابع : الرفعة بالجهاد ، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم

و الجهاد " 136

ولا تصل إلى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة ، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول ، فمن

امتلكها لان له كل صعب ، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت فيها

معاني الإيمان .. كما قال إقبال :

134 مفتاح دار السعادة 1/46 .
135 مجموع الفتاوى 10/186 .
136 مفتاح دار السعادة 1/50 .

همم الأحرار تحيي الرما **** نفخة الأبرار تحيي الأمما

و بالمقابل جعل رحمه الله : كل داء في سقوط الهمم .

و كذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم ، لا يفرجه ويوسعه إلا أصحاب الهمم العالية فحسب . ولذلك كان من تعاليم الإمام حسن البنا : " أن تستصحب دائماً نية الجهاد وحب الشهادة ، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد " ، " و أن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأمر " ¹³⁷

وإنه لمعنى يفقهه من ذاق العلو ، محجوب عمن يطلب السلامة .

قلت للصقر وهو في الجو عال : **** اهبط الأرض فالهواء حديب

قال لي الصقر : في جناحي وعزمي **** وعنان السماء مرعى خصب ¹³⁸

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون .. !

قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض } .

" إنها ثِقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، و تصورات الأرض . ثِقلة الخوف على الحياة والخوف على المال و الخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . ثِقلة الدعة والراحة والاستقرار . ثِقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . ثِقلة اللحم والدم والتراب . والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه : اثاقلتم - وهذه قراءة حفص ، وهي أبلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها : تثاقلتم - وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ، ويلقيها بمعنى ألفاظه { اثاقلتم إلى الأرض } ومالها من جاذبية تشد إلى أسفل و تقاوم رفرقة الأرواح وانطلاق الأشواق .

أن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثِقلة اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان و تغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع إلى الخلود الممتد ، و خلاص من الغناء المحدود : { أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } ، وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا و في هذه العقيدة دخل ، وفي إيمان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق) . فالنفاق - وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - وهو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة

¹³⁷ رسالة التعاليم ، المجموعة / 24 .
¹³⁸ لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني / 35 .

عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله ، { وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } .

و من ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : { إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضره شيئاً ، والله على كل شيء قدير } . والخطاب لقوم معينين في موقف معين ، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله . والعذاب الذي يتهدهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو عذاب الدنيا . عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات و استغلالها للمعادين ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس و الأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح و الجهاد ، و يقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء

139 "

لذلك رأى المودودي ضرورة الصراحة ، فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القارئ أنها خشنة فقال : (من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية و القلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية ، جاهدون في سبيلها ليل نهار ، ولا يقبلون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة ، و ما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم ، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم . فإذا كنتم ترجون ، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية ، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهاً كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة ، فما ذلك إلا حماقة) ¹⁴⁰

وبعد .. فإننا لا زلنا نعطيك جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام ، وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ رحمه الله أن "الكلام الحسن حسن ، وأحسن من الكلام : معناه وأحسن من معناه : استعماله" فقم إلى استعماله يرحمك الله :

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن **** نؤوما فإن الحزم ليس بنائم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر :

قد نهضنا للمعالي و مضى عنا الجمود

و رسمناها خطى للعز و النصر تقود

فتقدم يا أخا الإسلام قد سار الجنود

و مضوا للمجد إن المجد بالعزم يعود ¹⁴¹

¹³⁹ في طلال القرآن 10/223 .

¹⁴⁰ تذكرة دعاة الإسلام / 56 .

¹⁴¹ لوليد في أغاني المعركة 106 .

و كأنك قد أصغيت ، و استدركت قعودك ، و عفت مساعيك لاحراز الترقيات الدنيوية جانباً ، و آمنت بأنها آتية إليك دونما جهد و حرص . ثم كأنك أخذت مكانك في الكتيبة السائرة ، و بدأت تنشداهم مباعاً :

مهما عتا الأقزام والأعد
و لوحوا بالقيد أو هددوا
عن نصرة الإسلام هل أقعد
لا ، سوف أبقي دائماً أنشد
بفجره لا بد يأتي الغد¹⁴²

11- العبد الحر

إن مسلماً نودي بالسير مع الهمم العالية ، فانتفض ، و أفلت من قيود الأرض ، وخلق بجناح العزة : هو مسلم حري به أن يتم انتفاضته بخطوة تميز واضحة .
أو كما قال سيد رحمه الله : إن " أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج و يتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً ، إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى " ¹⁴³ ... وهذا يعني قيام مفاصلة شعورية وفكرية في ضمير المسلم ، ينفصل فيها التحديد الإسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج ، وهي : معنى الوطن ، ومعنى الحاكم ، ومعنى الدستور ، عن الاطلاقات الجاهلية في تفسيرها ، وعما بعد الإطلاق من اختلاف اجتهادات العقول . فالأمة الإسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها ، و جعل : " الجنسية فيها هي العقيدة . والوطن فيها هو دار الإسلام . والحاكم فيها هو الله . والدستور فيها هو القرآن .

هذا التصور الرفيع للدار و للجنسية و للقرابة هو الذي ينبغي أن يسطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله ، و الذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوصار التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية . الشرك بالأرض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة " ¹⁴⁴

وحملة الإسلام إنما ينطلقون بهذا المفهوم الإسلامي الواضح ، ويعلنوه ، دونما ملاطفة لأفكار الكفر الأرضية ، ولا مهادنة ، ولا محاولة استرضاء . وإنه لأمر جازم من الله لهم أن : { ادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون } .. " ولن يرضى الكافرون من

¹⁴² لوليد في أغاني المعركة 76
¹⁴³ في ظلال القرآن 4/21 .
¹⁴⁴ معالم في الطريق / 146 .

المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله وأن يدعووه وحده دون سواه ، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفوههم أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب . فليمض المؤمنون في وجهتهم ، يدعون ربهم وحده ويخلصون له عقيدتهم ، ويصفون له قلوبهم . ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا ، وماهم يوماً براضين " ¹⁴⁵ فما دامت هذه النتيجة حتمية ، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين ، فليسلك الدعاة إذن ما يناسبها من مقدمات ترد على تمرد الكفر ورفضه الإيمان . ولن يكون هذا الرد غير التميز ، و الانفصال عنه .

طالما أنه ليس هناك لقاء ، فإن المنطق يقتضي الانفصال إذن ، كما فاصلَ النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في العهد المكي ، و كما فاصل كل القبائل بعد الهجرة . ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ إليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية ، و إنما كانت حقيقة إيمانية و دلالة نعمة ربانية ، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون . و تلمس هذا في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكرهم بها ، و يتخذها عاملاً تربوياً للذين معه ، فيقول لما صلى بهم يوماً صلاة العشاء قريباً من نصف الليل : (أبشروا أن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم) ¹⁴⁶ ، وذلك " قبل أن يغشو الإسلام في الناس " ¹⁴⁷ كما يقول الراوي .

إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية ، وكذلك تربي نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء ، وتوكيد إلحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشلت وعمت وانتشرت وكثر أصحابها ، ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة ، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الأطراف ، الكثيرة القبائل .

والمس عظم أثر هذه التربية ، وتحولها إصراراً وثباتاً في الدين ، وتجديد عزم على الماضي ، حين يقول من سمع هذه البشرى : " فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم " ... فتصور هذه الدويرة الإسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة . كانت هناك طليعة إسلامية " تزاوُل نوعاً من العزلة من جانب ، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة " ¹⁴⁸ ، وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي ، فظهرت في المدينة بصورة كاملة واضحة . و ما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لولم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولوياتها ومقدماتها ، فيومها : " في مكة ، لم

¹⁴⁵ في طلال القرآن 60 / 24 .
¹⁴⁶ صحيح مسلم 2 / 117 .
¹⁴⁷ صحيح مسلم 2 / 115 .
¹⁴⁸ معالم في الطريق 9 / .

تكن للإسلام شريعة ولا دولة ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين " 149 .. كان " الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع " 150 ، فلما تجلى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة ، صار المجتمع الإسلامي مناراً واضحاً في تلك الصحراء ، يأوي إليه الهائم والمتشكك ، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث .

فلما اتسع المجتمع الإسلامي ، وانتصر ، ودانت كل الجزيرة بدين الله : استمرت هذه الحاجة إلى مفاصلة بقايا الجاهلية المتمثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات

وهي مفاصلة ثانية ، واجبة أيضاً . فكما أن المفاصلة الأولى أفادت في إيجاد عزة الإيمان في نفوس المفاصلين ، وفي جعل المدينة مناراً يأوي إليه الحائر ، فإن المفاصلة الثانية كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الإسلام ، المحافظ على سمات حكمه وفقهه وتربيته وفتوحه . ومن هنا دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه المفاصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة فقال : (إن لله عبداً يميئون الباطل بهجره ، ويحيون الحق بذكره) 151

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفاصلة التي نعيها . وهذا يعني أن عنصر النفاق واتباع الشهوات كلما زاد في المجتمع ، زادت هذه الحاجة إلى هذا النوع الثاني من المفاصلة ، بعملية طردية ، ليبقى الباطل باطلاً مشاراً إليه بأصبع الاتهام ، ولئلا يحيله التقادم إلى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون ، فينطلي زوره ، وينسى الناس اعوجاجه ، ولئلا تستسيغه النفوس من بعد ، حين يطول الأمد .

و لذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم لا بد لها إزاء زيادة النفاق و الفسق و اتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفاصلة ، و من هذا التميز ، بشكل واضح صريح ، لتبقى الصورة الإسلامية جلية واضحة بدورها ، يمكن أن ينظر إليها من يتغى

149 في ظلال القرآن 9/280

150 في ظلال القرآن 9/280 .

151 كتاب الخراج لأبي يوسف 13 .

النظر إليها ، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة ، و التفتيش عنها و تلمس مثل تطبيقي لها .
و الحقيقة أنه و إن افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم إسلامي يصلح مثلاً لتطبيق الإسلام ، إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بعض أشخاص من الدعاة ، تتضح فيهم معاني الإسلام ، ويكتسبون من هيئته ، و يبلغون الذورة في الإيمان والتجرد وتطبيق السنة النبوية الشريفة . وهذا هو معنى (القدوة) في صورتها البسيطة .

إن وجود (القدوة الإسلامية) يعني وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل في فكرته و عقيدته ، و سكناته و حركاته ، عما حوله ، منفصل عنهم ، تميزه الأبصار قبل المعاملة ، بما تعلوا وجهه من معالم السكينة و الهيبة و الحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره ، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامي المفقد ، ويكون بديلاً لها ، وبرهاناً على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة ، أو بالأحرى : يكون برهاناً على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الإسلام .

و أبو القاسم الجنيد رحمه الله يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الإسلامية بعبارة (الحرية عما سوى الله) ، أي ليس بينه و بين ما سوى الله رابط أو قيد أو نسب أو ميل أو رغبة ، بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر ، فيقول : " لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً " ¹⁵² ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه "عبودية الأحرار" أو " حرية العبد" ، فيصوغ سطرأً بليغاً رفيعاً يغني عن عشر مجلدات ، ويقول : " إنك لا تصل إلى صريح الحرية و عليك من حقيقة عبوديته بقية " .

فلأن الإسلام كله عبودية لله تعالى ، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد ، هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة ، وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن أفضل الزهاد العباد : الفضيل بن عياض رحمه الله ، إذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية مما سوى الله : واجب المسلم في تجريد الربانية له واطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي ، أو بالقسر و الاكراه ، فيقول الفضيل : " والله ، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية " ¹⁵³ . فالمسلم يفرد الله بالعبادة ، و إفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير ، ومما يشرعون لأنفسهم ، و يجهر بذلك مفاصلاً ، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله : { إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي

¹⁵² مجموع فتاوي ابن تيمية 10/598 .
¹⁵³ مجموع فتاوي ابن تيمية 10/599 .

وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ {

" إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً . وانتفاضة المفاصلة بين حزين لا يلتقيان على وشيجة ، وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة . وهو يشهد الله على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم ، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوهم ، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره و خوفه أن يكون منهم . و ذلك كله مع عزة الإيمان و استعلائه ، و مع ثقة الإيمان واطمئنانه ! وإن الإنسان ليدّش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ، و يروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدّش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المغترّاه هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم و يقرعهم عليها و يؤنبهم ، ثم يهيج صراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعمهم يترثون فيغثاً غضبهم . إن الإنسان ليدّش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد ، و لكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل و الأسباب .

إنه الإيمان ، و الثقة ، و الاطمئنان . و الإيمان بالله ، و الثقة بوعده ، و الاطمئنان إلى نصره ، الإيمان الذي يخالط القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة ، لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر تتملأه العين و القلب " ¹⁵⁴ { إن ربي على صراط مستقيم } ..

" فهي القوة والاستقامة والتصميم . وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي . إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه . أنه يجد هذه الحقيقة واضحة . إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر : { ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها } ، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها و يقهرها بقوته قهراً ، فما خوفه من هذه الدواب و ما احتفاله بها ، وهي لا تسلط عليه - إن سلطت - إلا بإذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟ إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة نفسه ، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره ، ولا مجالاً للتردد عن

المضي في طريقه . إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً "

155

وقد فقه الإمام البنا رحمه الله هذه النظرية في المفاصلة ، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها ، وأوضح أن مستقبل الإسلام إنما يعتمد على " هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجدوا في تكوينه ، وعلموه استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد والعمل ، واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن ، و جندوه تحت لواء محمد ورايته ، و سترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه و يسعد غيره " ¹⁵⁶ ... فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال ، كما عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالهجر . فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير ، و العزة و الاستعلاء .

و استغلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب . و استقلال العمل هو التميز في الصف ، و ترك الأحلاف . وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشء ، فإنها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم ، والثبات على هذه المفاصلة . أو كما قال الإمام : " لا تصغروا في أنفسكم ، فتقيسوا أنفسكم بغيركم ، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ، و منهاجها من سنة رسوله ، بغيرها من الدعاوات التي تخلقها الضرورات ، و تذهب بها الحوادث و الأيام " ¹⁵⁷ . ومن مكملات ذلك و ضرورياته حفظ صفاء الابتداء و نقاوته ، و كما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمة ، و يسيرهم مع الهمم العالية ، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الابتداء ، فإن الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة .

إن من يفتح عينه على المفاهيم الإسلامية النقية المستمدة من القرآن و السنة فحسب غير المشوبة بترهات غير إسلامية فإنه يبدأ وينشأ ويشب و يشيب و يموت على هذه المفاهيم ، و من سقي المخالط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد . و لقد وعى أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر آبادي المتوفي سنة 367 هـ هذا المعنى أروع الوعي فقال :

" ما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء ، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء " .

فأحسن البداية و أتقنها يا داعية الإسلام .

¹⁵⁵ في طلال القرآن 12/97 ، 98 .

¹⁵⁶ تحت راية القرآن ، المجموعة / 319 ، 321 .

¹⁵⁷ تحت راية القرآن ، المجموعة / 319 ، 321 .

12- قصص من لهُو الدعاة

ما كان لأهل الحركة الإسلامية و من حولهم من ناشئة الابتداء أن يتخلفوا عن السير نحو أفراح الآخرة ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا غبار في سبيل الله ، ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية ولا ينالون من ملحد نبلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ؛ ولا ينفقون نفقة من التعب صغيرة أو من الهول كبيرة ، ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون .

و كيف يلتذ داعية براحة وهم قد لقنوه من أول يوم أن ينشد :

في ضميري دائماً صوت النبي **** أمراً : جاهد و كابد و اتعب

صائحاً : غالب و طالب و أدأب **** صارخاً : كن أبداً حراً أبي

و كيف يميل إلى استرخاء ، و أصحابه يهتفون :

نبني ، ولا نتكل **** نفني ، ولا ننخذل

لنا يد والعمل **** لنا غد والأمل

إن حرية الداعية ، والأمل الذي يستيقنه : يدفعان به دفعاً إلى البذل السخي .

• علو في الحياة :

حرية و أمل

حرية تكسر قيود الشهوات

و أمل بالأجر ، و ثقة بالنصر

كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في ميزان التصارع العقائدي ، كانتا دوماً في تاريخ التوحيد الطويل ، تأخذان التعب من أجيال الدعاة من النبيين والصديقين والراشدين و التابعين و من لحقهم بإحسان على مر القرون ، فكلهم بالتعب كانوا يفرحون يأبون إلا العلو في الحياة ونحن إن شاء الله بهم لمقتدون .

كان تعبهم يتمثل أحياناً بحركة يومية دائبة في الإنذار والتبشير ، والتجميع والتبصير ، أو سهرراً على رعاية مصالح المسلمين . و يتمثل أحياناً في انكباب على التعلم واجتياز المغاور لحيازة حديث أو كلمات فقه .

ويتجسد في أخرى قتالاً ، وتحفيزاً دائماً لجهاد وعلو موت . وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط .

وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط .

فإن أخذوا راحة ، واستلقوا على ظهورهم : لبث ذهنهم يصطاد الخاطر .

وكل ذلك حكى التاريخ ، ليتعلم الدعاة اليوم .

• نطق بالليل و النهار :

فأول من يطالعنا : الأنبياء عليهم السلام . كان لسانهم ناطقاً بالليل و النهار ، و الإعلان و الإسرار . قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام : { قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً } ، ثم قال : { ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً } .

• ونطق أثناء خطوات الهجرة :

" والواقع أن الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر إلا فيها ولا يتحرك إلا من أجلها ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته لم يشغله عنها شاغل أبداً حتى في أخرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف ، وهكذا كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فعندما هاجر إلى المدينة و معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . وهذا يدل أنه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن الدعوة إلى الله حتى وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة و القوم يطلبونه " ¹⁵⁸

• و نطق في السجن :

" ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوماً لم يشغله السجن و ضيقه عن واجب الدعوة إلى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤيا رأياها ، فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به : { يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار } " ¹⁵⁹

• الراشد يمنع النوم :

و قاربهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه حتى قال عند وفاته : " والله ما نمت فحلمت ، ولا توهمت فسهوت ، و إني لعلى السبيل ما زغت " ¹⁶⁰ . يعني أنه قد شغلته حروب الردة و الفتوح وأرهقه إرساء جهاز الدولة ، حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن يحلم ، و ظل يزداد بعد النبي صلى الله عليه وسلم في الصديقية ليهبه الله تعالى يقظة أثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو .

• الترابي !

¹⁵⁸ أصول الدعوة / 284 .
¹⁵⁹ أصول الدعوة / 284 .
¹⁶⁰ الخراج لأبي يوسف / 11

ويترحم عبدالله بن عباس رضي الله عنه انغماسه في صورة جمع بين التواضع والصبر على مشقة التعلم وجمع الحديث ، حتى أن الريح لتسفي عليه التراب ، يرحو بذلك أن يستنشق نسمات الجنة ، ويجتاز الصراط بلا حساب .

واسمعه يروي ما كان منه ويقول : (أقبلت أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحديث ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل يأتي بابه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه ، تسفي الريح علي التراب ، فيخرج فيقول لي : يا بن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فأتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن أتيك ، فأسأله عن الحديث) ¹⁶¹ . ولو شاء أن يوقظوه لأيقظوه له مع الفرح ، ولكن الهمم العالية تطرب لصغير الرياح ولفحات التراب .هواية رفع الأثقال

والداعية اللبيب يسابق أصحابه لحمل كل ثقل من الأمور ، فيكون يوم الجمع صاحب الميزان الثقيل ، كما تسابق النخعيون يوم معركة القادسية . قال أحد الصحابة منهم : " أتينا القادسية ، فقتل منا كثير ، و من سائر الناس قليل ، فسئل عمر عن ذلك فقال : أن النخَع ولوا عِظَم الأمر و حدهم " ¹⁶² وما كان أحد ممن حضر القادسية إلا و أبلى ، و لكن الدعاة إلى الله لهم هواية التسابق في رفع الأثقال .

• حصن التربية الأسدية

والذروة يعلوها التابعي العابد الفقيه المحدث الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي ، نتاج تربية الأربعة الراشدين و ابن مسعود و سعد بن أبي وقاص و غيرهم ، فإنه عاف التجارات و البيوت و بنى له في الكوفة حصناً صغيراً يسعه هو و فرسه و سلاحه فقط ، و بقي طول عمره متحفظاً للجهاد ، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس ¹⁶³ . تجرد حق التجرد ، فأنتج حق الانتاج ذرية تجرد تتبعه ، يعلم الدعاة بذلك طريق إنتاج الرجال باستخدام وسائل الايضاح البصرية المجسدة .

أنتج أبو وائل أمثال : سليمان الأعمش ، و منصور بن المعتمر ، و حصين بن عبد الرحمن ، وعمر بن مرة ، و غيرهم من فحول المحدثين . إن من لا يفهم التربية يظن أن بناء هذا الحصن من التكلف و الرياء ، وما هو كذلك .

• ذهب الفراغ!

¹⁶¹ طبقات ابن سعد 2/368 .

¹⁶² الاصابة 1/28 .

¹⁶³ كتاب الثقات لابن حبان 108 .

و يموت شقيق الأسدي مع نهاية قرن الخير الأول ، فيبادر الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز إلى ضرب الأمثال . تصفه زوجه فاطمة بنت عبد الملك فتقول : " كان قد فرّغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه : وصل يومه بليته " ¹⁶⁴ . يضرب المثل بذلك لداعية الإسلام إن أراد أن يصدق دعوته و يؤدي الأمانة .

صدق الداعية : أن يجدد أطوار عمر فيفرغ نفسه للمسلمين ، فلا تجد له حركة دنيوية إلا بمقدار ما توجهه ضروريات إطعام عياله . و يفرغ ذهنه ، فليس فيه إلا تفكر بمصالح الدعوة .

ويتعرض أصدقاءً قدماء لعمر ، من أصدقائه قبل الخلافة يوم كان فارغاً ، يودون أن تكون لهم معه جلسة يعيدون فيها الذكريات ، فيقولون : " لو تفرغت لنا " ، فيقول : " وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله " ¹⁶⁵ ..

يلقنها لمن يدخل الدعوة بعده إذا دعاهم رفاق الأمس إلى قتل الأوقات .

• موفق يجوب بحقيبة العلم راجلاً

ويستمر تلامذة أحمد بن حنبل ، وأتباع مذهبه من بعده ، يضعون وسائل الإيضاح البصرية في الاستخدام التربوي ، فإنهم كما وصفهم الفقيه النحوي ابن عقيل : " غلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل " ¹⁶⁶ .

فمن تلامذته : الحافظ الإمام الفقيه الزاهد المحدث : إسحق بن منصور المعروف بالكوسج ، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما . كان يسكن نيسابور بخرسان ، فرحل إلى بغداد ودون عن أحمد بن حنبل مسائل في الفقه كثيرة ، ورجع إلى نيسابور ، ثم إنه : (بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل ، فحملها في جراب على كتفه ، وسافر راجلاً إلى أحمد ، ثم عرض خطوط أحمد على كل مسألة استفتاه عنها فأقر له بها وأعجب به) ¹⁶⁷ ... وأحدنا الآن يجلس على أريكته و بجنبه مسند أحمد مطبوعاً محققاً مجلداً مذهباً يتكاسل أن ينظر فيه .

• الحنابلة يحفظون السمات

ويرسم ابن عقيل ، النحوي الفقيه الحنبلي ، صورة الداعية الذي لا تكون خطراته وسبحات فكره - بل أحلامه إذ ينام - إلا في الدعوة ، ويجلي ذلك بقوله : " إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري

¹⁶⁴ سيرة عمر لابن عبد الحكم / 146 .

¹⁶⁵ طبقات ابن سعد 5/397 .

¹⁶⁶ ذيل طبقات الحنابلة 1/ 152 .

¹⁶⁷ تذكرة الحافظ للذهبي 2/ 524 .

عن مطالعة : أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح " 168 ... فانظر ، كم ساعة من نهارك و ليلك تضيع سدى ؟

وخلفه الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي . قالوا : (لازم العبادة ، والعمل الدائم والجد ، واستغرق أوقاته في الخير .. صَلَّبَ في الدين ، وينصح الإخوان ، و إذا رآه إنسان : عرف الجد في وجهه) 169 .

وهكذا يجب أن تكون دائماً علامة الدعاة سيماهم في الجد ظاهرة في وجوههم ، لا يخطؤها النظر .

ليس لهم نصيب من الهزل و الضحك و البطالة .

• أصحاب الإمام البنا يجددون

وجدد جيل هذا القرن من الدعاة في مصر تلك الصور الرائعة القديمة ، ليبرهنوا أن الإسلام الذي أنتج أولئك لا يزال حياً . يصف الإمام حسن البنا أصحابه فيقول : (قد سهرت عيونهم والناس نيام ، وشغلت نفوسهم و الخليون هجع ، وأكبّ أحدهم على مكتبه من العصر إلى منتصف الليل ، عاملاً مجتهداً ، و مفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طول شهره ، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده مورداً لجماعته ، ونفقته : نفقة لدعوته ، و ماله : خادماً لغايته ، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيته : { لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله }) 170

* و علو في الممات .. !

وكما في مصر ، كان من رجيل العراق الأول : أبو صفوان الدباغ صاحب رسالة (مع الناشئة) ، الرسالة الصغيرة البسيطة جداً ، الطريفة جداً .

حدثني الثقة من أقرانه ، قال : (كان مريضاً بالسرطان ، و اشتد مرضه سنة اثنتين و خمسين و تسعمائة و ألف ، فرقد في المستشفى أياماً ، و كأنه أحسن بلحظات حياته الأخيرة ، فطلب مواجهة قائد الدعوة آنذاك ، فجاءه و معه بعض الدعاة - فيهم راوي القصة - فأعلمهم بقرب موته ، وشهد أن لا إله إلا الله ، و قرأ شيئاً من القرآن ، و صافح يد القائد ، و أعلن تجديد بيعته و ثباته على هذه الدعوة و حملهم السلام إلى من كان من الدعاة آنذاك و إلى من سيلتحق بعد ، ثم أعاد الشهادة و مات من فوره ، بعد تجديد بيعته بقليل) .. رحمه الله ... فتأمل هذه منقبة لا يزرقها إلا من كان توجهه صادقاً في حياته .

168 ذيل الطبقات الحنبالية 1/146 ، 2/361 .

169 ذيل طبقات الحنبالية 1/146 ، 2/361 .

170 إلى أي شيء ندعو الناس ، المجموعة / 129 .

وتأمل علو همته . كأنه في قاعة مطار يودع أو على رصيف محطة قطار .
أخ لك سابق غادر الحياة ولعلك لم تولد بعد يحييك ويبلغك السلام ، و يطلب منك
الثبات على هذه الدعوة التي جربها في آخر لحظات حياته فوجد لذة السير إلى من
أنعم بها على عباده .

إن في ذلك لعبرة تغني اللبيب عن كثير من الكلام المنمق والبلاغة المتكلفة .
حقاً إن الهمم مراتب ، ولا تعلو همة في نهايتها وعند موتها إلا إذا علت في بدايتها .
وقائع وقصص يمرُّ بها الداعية يأخذ منها الدروس والعبر ، والهُمام من يقول : اللهم
اجمعنا وإياهم في دار كرامتك .

وكذلك نقصص القصص لدعاة الإسلام لعلهم يقتدون .

.....